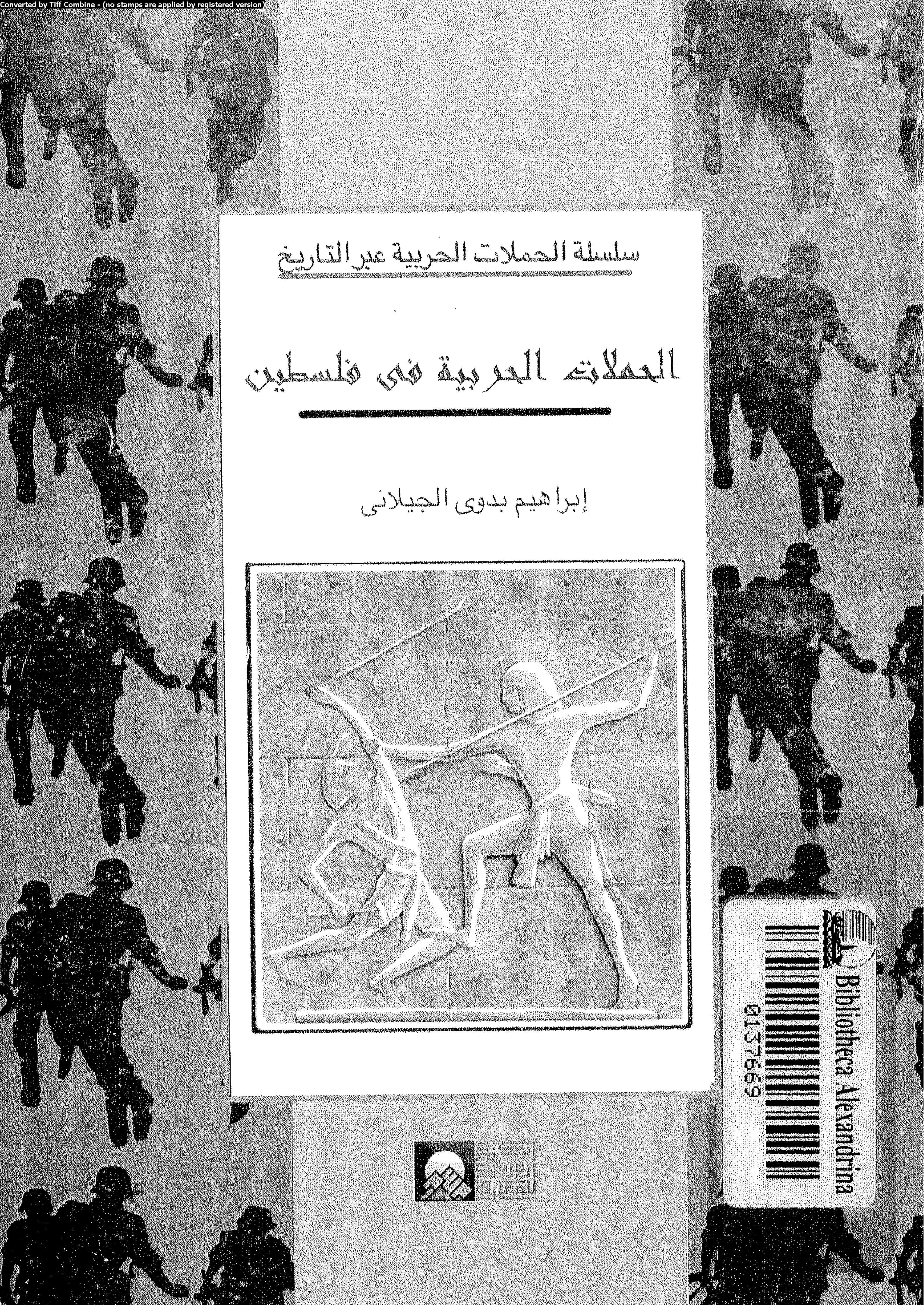


سلسلة الحملات الحربية عبر التاريخ
الحملات الحربية فى فلسطين
إبراهيم بدوى الجيلانى

سلسلة الحملات الحربية عبر التاريخ



الحملات الحربية فى فلسطين

الناشر

إبراهيم بدوى الجيلانى

سلسلة الحملات الحربية عبر التاريخ

الحملات الحربية فى فلسطين

الناشر



رسوم الغلاف :- هانى عبد الهادى

تصميم الغلاف :- سناء قيشاوى

رقم الإيداع :- ٩٨/٧٥٨٤

الترقيم الدولى :- 977-276-381-8

الناشر

المكتب العربى للمعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد حسن

ميدان الحجاز- مصر الجديدة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت/ ٢٤٢١٥٢٦ - ٢٤٣٤٣٩٨

فاكس / ٢٤٨٨٦٥٣

مقدمة

تُعد دراسة الحملات الحربية عبر التاريخ، ولا سيما ما دار منها فى فلسطين الحبيبة قلب الأمة العربية والإسلامية، موضوعًا بالغ الأهمية جيلاً بعد جيل . ومن المعروف أن الفاتحين من أشوريين وفراعنة وفرس ومقدونيين ورومان دخلوها من الجنوب، وكذلك فعل القادة العرب والمسلمون الذين تقدموا فى فتوحاتهم على محور محاذٍ لأقدم الطرق العالمية التى ربطت بين المدنيات والحضارات فى الأزمنة الغابرة، فهو يخترق وادى عربة فى جنوب البحر الميت للغور ويتجه نحو صحراء النقب، ويمرُّ بالسهول الساحلية غرب جبال القدس الصخرية، ويقطع جبال الكرمل عبر ممر منخفض، ثم يلتقى شمالاً بحرج ابن عامر نسبة إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح (رضى الله عنه)، وليس "يزرعيل" الدخيل. إنها أماكن وأزمنة تعيد لنا ذكريات أثيرة إلى نفوسنا، وحرى بنا وبأجيالنا الصاعدة أن نتبين حقائقها ولا ندع الأعداء يشوهونها.

لاشك فى أن مبادىء الحرب تتطور وتتبدل على مر العصور، ولكن ذلك لا يمنعنا من مراجعة التاريخ العسكرى، والاستفادة من التجارب المناسبة التى تنفعنا بشكل أو بآخر. إن جغرافية الأرض هى التى تقرر مسيرة الحملات البرية فى كل زمان ومكان. ولا نغالى إذا قلنا بأن الأرض قناةٌ تنساب فيها القوات الغازية، دون إغفال حسناتها الطبوغرافية، فكانت فتوحات:

الفصل الأول

حملة عمرو بن العاص

(عام ١٣ هـ / ٦٣٨م)

مقدمة:

عادت قوات الخليفة منتصرة من حروب الردة، وأحسَّ أبو بكر أن جند الإسلام فى توق زائد لمواصلة الجهاد، وأخذ عمرو ينظر ويطيل النظر إلى بلاد الشام، حيث استشرت شرور الجاهلية وأصابت بقية أهلينا القاطنين فى البيد والحضر تحت حكم الأجنبى فيما وراء أطراف الجزيرة العربية. وأشار عمرو إلى أنه مازال أناس لمْ يُطْعَمُوا الإيمان، وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم(١) بالحكمة والموعظة الحسنة فأبوا وتمادوا فى الشر تملقًا للأجنبى. وعلى الأثر امتد جناحا النسر الفاتح يطوى أراضى "الفرس" شرقًا و"الروم" غربًا، فانفرد جناحٌ نحو العراق بقيادة خالد بن الوليد، كما انفرد الجناح الآخر نحو الشام(٢). وكان عمرو يود أن يكون قائدًا للجناح المقابل لجناح خالد بن الوليد، ولكن الخليفة ارتأى أن يقسم الجناح الغربى إلى ربعة جيوش صغيرة: أحدها يتقدم إلى حمص على نهر العاص بقيادة أبى عبيدة بن الجراح، والثانى يتجه إلى دمشق على نهر بردى بقيادة

١- سبق لجيش أسامة بن منقذ أن نفذ ما كلفه به رسول ا صلى ا عليه وسلم، فوطىء بخيله "الداروم" من أرض فلسطين (راجع كتابى المعنون: جند الإسلام- الفصل السادس (ج)).

٢- قسمها العرب إلى سبعة أجناد: والأردن ودمشق وحمص وقنسرين والعواصم والثغور، وحاليًا يطلق على العاصمة دمشق اسم الشام أيضًا.

وجدير بالذكر أن هذه الجيوش سيقت وفق خطة سوقية بارعة، قل من أبدع مثلها عبر العصور، وهذا ما نوه عنه الجنرال فون دركولتز (Von Dercoltz) ، أحد كبار القادة الألمان فى مؤلفاته العسكرية.

يزيد بن أبى سفيان، والثالث يقصد إلى وادى نهر الأردن بقيادة شرحبيل بن حسنة، والرابع يزحف نحو فلسطين بقيادة عمرو بن العاص الذى أوصاه الخليفة أن يكاتب أبا عبيدة، وينجده عند الحاجة ولا يقطع أمرًا إلا بمشورته. فأصبح أبو عبيدة يؤدى مهمة القائد العام على غرار ما هو متبع حاليًا.

بلغ تعداد هذه الجيوش الأربعة، قبل وصول المدد وإعادة تنظيمها فى مجموعة جيوش فيما بعد، خمسة وثلاثين ألف مقاتل، خرجوا جميعهم من الحجاز وهم يرددون الوصية المشهورة: "لا تخونوا، ولا تُغِلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولابقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له، وسوف تُقدمون على قومٍ يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب! فاخفقوهم بالسيف خفقًا، "اندفعوا باسم الله".

ولا غرو فقد ترتبت سوقية العرب على حشد أربعة جيوش، لكل منها هدف معين ويساند أحدهم الآخر، ولم يفطن العدو إلى هذه السوقية إلا بعد حين. وفيما يلى نبذة عن القوات المسلحة لدى الجانبين:

القوات المسلحة العربية

تشكل الجيش العربى فى صدر الإسلام من المجاهدين ورجال القبائل المتطوعين الذين لبوا دعوة الجهاد فى سبيل الله. وكان الجندى

المسلم رشيق الجسم، صلب العود، خشنًا يتحمل المشاق، متمرسًا بالنزال فى مختلف الظروف، خفيف الحركة غير مثقل، يباغت عدوه كالصاعقة. وقد ساعده فى ذلك طبيعة البيئة التى نشأ فيها، ولم يكن العمر محددًا لأن واجب الجهاد مفروض على كل قادر. انتظم هذا الجيش فى كراديس ذات أمجاد حسب كل قبيلة وتحت قيادة رئيسها أو شيخها، أما الفرسان فكانوا يُجمعون بإمرة قائدٍ واحد. كان الجيش مؤلفًا من المشاة والخيالة، وتسليحه لا يختلف كثيرًا عن تسليح القوات المعادية. غير أن العربَ لم تستعمل الدرع لأنه يقيد حركة الفارس والفرس معًا ويزيد فى أثقال الجيش. ومن هناك كانت حركة الروم بطيئة وجعلتهم يصلحون للدفاع أكثر منه للهجوم. أما العرب فتميزوا بخفة الحركة، وهذا مبدأ برزت أهميته على مر العصور لا سيما فى وقتنا الراهن، وحققوا بذلك قابلية التنقل السريع والتعاون فيما بين الخيالة والمشاة وتشكيل الاحتياط وعدم ترك ذيول فى مراحل التقدم والانسحاب والالتفاف وقطع خطوط المواصلات. ولكنهم فى مراحل الثبات فى وجه الأعداء أو حصارهم فإنهم سرعان ما يبتكرون الوسائل الفعالة من حفر خنادق واستحكامات (كما فى أحد) أو استعمال المجانيق (كما فى الطائف). وقد أحصى الطبرى عشرين منجنيقًا نصبه العرب على مدينة نهر سير، وذكر أن أبا عبيدة وخالد بن الوليد حاصرا دمشق سبعين يومًا واستخدموا خلالها المجانيق. وقد بدأ فى العصر النبوى ترتيب الجيش على التنظيم الخماسى، قلب وميمنة وميسرة وساقة ومقدمة، وأدخل الإسلام نظام الصف فى المعركة وألغى نظام الكر والفر.

القوات المسلحة المعادية

كانت الخدمة فى الجيش الرومانى البيزنطى إجبارية تفرض على كل رجل يتراوح عمره ما بين سبعة عشر عامًا وخمسين عامًا مما جعلهم يحترفون الجندية كمرتزقة. وكانت التشكيلة الرئيسية تسمى لجيون "Legion"(١) وهى تعادل مجموعة لواء. وقد قُسم الجيش إلى الوليت (قوات المشاة الخفيفة من أصغر الجنود سنًا وأحدثهم فى الخدمة) والهاستر (جنود المشاة الثقيلة المدربين جيدًا) والبرنس (الجنود الشجعان المتمرسون بأساليب القتال) والترير (الجنود الذين أدوا خدمات جليلة) وأخيرًا الفرسان الذين سُلحوا بالسيوف ودرعوا وخيلهم بالدروع الحديدية. أما صنوف المشاة فكانت مسلحة بالسيوف والرماح القصيرة والفئوس والنبال. كان الروم يضعون قوات المشاة الخفيفة (الوليت) فى الخط الأمامى وخلفهم الهاستر ثم البرنس وأخيرًا الترير. أما الخيالة فكانت توزع على الليجيونات على غرار الأسلحة المساندة التى تلحق بالألوية لتصبح مجموعات ألوية. وكان الفرسان يقاتلون على الجوانب - - لحماية الأجنحة - أو فى الأمام حسبما يتطلب الموقف الحربى.

محور التقدم

تسلم عمرو قيادة جيشه الذى لم يتجاوز تعداده تسعة آلاف مقاتل معظمهم من أهل مكة والطائف وهوزان وبنى كلاب، وعُيِّن له محور التقدم: المدينة - تبوك - العقبة - غزة - بيت المقدس. وكان هذا الجيش أقل تعرضًا لأن الميمنة حمتها توالى تقدم الجيوش العربية

١- أطلقت هذه التسمية على الجيش العربى الأردنى: "Arab Legion" قبل تعريبه.

الأخرى، كما كانت ميسرته مستندةً إلى البحر الأبيض فى حالة احتلال فلسطين. سار عمرو بمحاذاة ساحل البحر الأحمر حتى أشرف على أيلة (أم رشرش/إيلات مقابل العقبة). وبعد أن أعاد تنظيم جيشه الصغير واصل تقدمه، وأرسل طلائعه عبر وادى عربة وهى البوابة التى دخل منها فلسطين وخاض أولى معاركة المظفرة، فى يوم ٢٤ من ذى الحجة عام ١٣ هجرية (الموافق ١ /٣ /٦٣٤م)، ثم وقعت معركة داثن بإمرة أبى أمامة الصدى بن عجلان الباهلى الذى دحر قوة معادية بقيادة سرجيوس (Sergius) حاكم جنوب فلسطين بالقرب من خربة الدمثية الحالية الواقعة شرق بلدة دير البلح على مسافة ٥ كم. وقد أدى هذا النصر إلى فتح غزة كأول مدينة فلسطينية استردت عروبتها، ثم تبعتها مدينة عسقلان بمساعدة القبائل العربية المتنصِّرة فى الشمال الذين انضموا إلى أشقائهم القادمين من الجنوب فى جيوش الفتح تخلصًا من الاحتلال البيزنطى(١) وجوره. وذكر الواقدى فى كتاب "فتوح الشام" أن عمرو ابن العاص صادف فى أثناء تقدمه عدَى بن عامر قادمًا من الشام وكان خبيرًا بالدروب والمسالك، وعلم منه بوجود تحشدات معادية تربو على مائة ألف مقاتل شاهد جميع أعلامها وراياتها وهى معسكرة فوق جبل شاهق الارتفاع يُدعى "الأجم" بقيادة روبيس. وكان هرقل قد أرسل هذه الحشود وغيرها عندما أخبره أحد رعاياه من التجار القادمين لتوهم من المدينة أنه رأى خليفة المسلمين يتفقد الجيوش وسمعه يوصى أحد قادة هذه الجيوش وهو يقول "عليك بفلسطين وإيليا" فتوقف عمرو عن التقدم واجتمع بجنده للتشاور، واستقر رأيه على عقد راية وإعطائها إلى

١- أطلق العرب اسم "الروم" على الإمبراطورية الرومانية الشرقية، واسم "بحر الروم" على البحر المتوسط.

عبدالله بن عمر بن الخطاب وقد ضم إليه ألف فارس وأرسلهم أمامه كحرس مقدمة. وعندما جدوا فى السير بقية يومهم إلى الصباح لاحت لهم غبرة انكشفت عن بضعة آلاف من الأعداء بعث بهم روبيس لكشف أخبار المسلمين. ورأى عبدالله بن عمر أنه من الأصوب عدم إمهالهم فردد القوم شعارهم وكان فى فلسطين "لا إله إلا الله محمد رسول الله، يا رب انصر أمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم". ثم حمل عكرمة بن أبى سهل وتبعه سهل بن عمرو والضحاك واستنفروا رجالهم فحمل المهاجرون وتلاهم الأنصار واحتدم القتال. قال عبدالله بن عمر "بينما أنا فى الوقعة، إذ نظرت بين القوم بطريقا عظيم الخلقة وهو كالحائر البليد، يركض يمينًا وشمالاً، فقلت إن يكن لهذا الجيش عين فهذا عين الجيش وصاحب الطلائع وهو مرعوب من الحرب. فلما حملت عليه ومددت قناتى إليه نفر فرسه من الرمح، فتقربت إليه وأوهمته أنى أريد الانهزام ثم عطفت عليه وطعنته. فوالله لقد خيل لى أنى ضربت بسيفى حجرًا وسمعت طنين السيف حتى حسبت أن سيفى انفصل، وإذا هو صريع. ثم عطفت عليه وأخذت لامته، فلما رأت الأعداء أن صاحبهم مجندلاً داخلهم الفزع والهلع. وصدمهم المسلمون فى الضرب والقتال، فلله در الضحاك والحارث، لقد قاتلوا قتالاً شديدًا ما عليه من مزيد. فما كان غير قليل حتى انهزم الأعداء من بين أيديهم هاربين". وفى هذه المعركة استولى المسلمون على ٦٠٠ أسير، ضمنهم ثلاثة أسرى من الأنباط يتكلمون العربية واستنطقهم عمرو وتأكد من حشود الروم. فطن عمرو إلى الخطر الذى يتهدده، وأخذ يتراجع وكتب إلى أبى بكر بالأمر وطلب المدد، كما كتب أيضًا إلى قادة الجيوش العربية الأخرى ويحذرهم من الخطر

ويطلب منهم أن يحتشدوا فى مكان واحد. ويُجمع المؤرخون المستشرقون على أن جيشًا معاديًا كبيرًا تصدى لقوات عمرو الصغيرة فانسحب تدريجيا بمحاذاة نهر الأردن فى الضفة الغربية، وقد أحسن صنعًا بهذا الانسحاب المنظم.

التحول من الانسحاب إلى الهجوم

على حين غرة وصل خالد بن الوليد بقواته الظافرة من العراق ونزل بجنوب سوريا، واجتمع بقادة الجيوش الثلاثة، أبى عبيدة ويزيد وشرحبيل، واتفقوا أولاً على نجدة عمرو بن العاص الذى كان لايزال فى فلسطين يتحايل للإفلات من خصمه القوى. والظاهر أن الروم عندما عرفوا تقدم العرب نحو فلسطين تحولوا إلى حصن أجنادين حيث وقعت بالقرب منه أولى معركتين.ومكان أجنادين غير معروف بالضبط حتى الآن، وجاء ذكرها فى بعض المراجع أنها بين بيت جبرين والرملة، ويرجح أنها قرب قرية عجور. وانتهت المعركة فى أجنادين بانتصار العرب انتصارًا موضعيًا. اجتاز عمرو نهر الأردن وانضم بجيشه إلى الجيوش العربية الأخرى تحت إمرة القائد العام خالد بن الوليد. وبعد أن اشترك عمرو فى معركة اليرموك الفاصلة، وأسهم فى احتلال دمشق، أصدر إليه الفاروق أوامره بالعودة إلى فلسطين لإنجاز الفتوح فيها على أن يساعده شرحبيل بقواته، ولاشك أن توحيد القيادة كان أعون على توزيع العمل بين القادة فى أنحاء مسرح القتال. استقل عمرو بغزوات فلسطين وما جاورها، وتم على يديه فتح أول مدينة غرب نهر الأردن مقابل مصب اليرموك وهى مدينة بيسان، ثم استولى على مرج عيون وطبرية وحيفا وجنين ونابلس واللد والرملة وبيت جبرين وعمواس والسهل الساحلى. كما

فتح شرحبيل مدينة عكا ولم يبق للروم إلا حصون ثلاثة: أجنادين وقيسارية وبيت المقدس.

قسم عمرو قواته إلى ثلاث مفارز. وتولى هو محاصرة حصن أجنادين بين الرملة وبيت جبرين، وأرسل قوة تسبقه إلى بيت المقدس، وأوكل إلى معاوية بن أبى سفيان مهمة احتلال حصن قيسارية. أصبح عمرو وجهًا لوجه أمام أريطبون، فكان ينازله بالجرأة تارة وبالمكيدة تارة أخرى. وكلتاهما من الصفات التى اشتهر بها عمرو. واتفقت المصادر على التنويه ببلاء عمرو فى هذه الغزوات، فوضح منها جميعًا أنه لم يكن يألو ذلك العمل الجسام الذى وكل إليه جهدًا من شجاعته ولا من تدبيره. وربما جشمته موارد التدبير مخاطر لم يتجشمها فى موارد القتال. ومن أمثلة ذلك أنه لم يشف غليله مقدار المعلومات التى حصل عليها نتيجة للاشتباكات الأولية التى قصد منها جس نبض الأعداء كى يرسم خططه ويعبىء جيشه. ولم يقنع بالمعلومات التى أخبرته بها العيون عن وضعية التحصينيات وقوة العدو غير كافية، فعزم على أن يعتمد على نفسه ويدخل معسكر العدو متنكرًا كأنه رسول للتفاوض.

استطلاع الحصون من الداخل

ذهب عمرو إلى مقر والى فلسطين، واستأذن عليه مدعيًا أنه موفد من قبل عمرو بن العاص قائد الحملة، فأذن له، ودخل عمرو عليه محييًا، فصعَّد "أريطبون" فيه نظرةً علَّه يكتشف ما فى قرارة نفسه ثم دارت بينهما المناقشة التالية:

- هل عمرو هذا داهية كما يقولون؟

- عمرو يا سيدى سهم من سهام الله، يعرف أين يضع قدمه وأين يوجهها، وما دخل فى شئ إلا خرج منه.

- متى تعلمتم الحرب؟! إنا عهدناكم أمة بدوية لا تعرف إلا مواقع الغيث ومواطن الكلأ.

- ليس فينا يا سيدى إلا فارس أو محارب، فدربتنا صحراؤنا على احتمال المكاره، وعلمتنا الطعان والضرب، وأرشدتنا إلى مقاتل الأعداء، ولا تنس أنكم انتصرتم بسواعدنا قبل الإسلام، وسيوفنا باليرموك شاهدة ناطقة.

- ما هى قوتكم؟

- لا أدرى يا سيدى، فما أنا إلا رسول عمرو، جئت أبلغك رسالته وأدعوك بلسانه إلى الإسلام، فإن أبيت فالتسليم ودفع الجزية، وإن أبيت فالحرب.

- الحرب ؟! وهل تظنون أنكم ستغلبون أريطبون؟

- هل أريطبون أعز على سيوف المسلمين من قادة الروم الآخرين. إن السيوف التى أصابت أفئدة جندكم ستصيب أفئدة من يقف فى طريق جيش عمرو، إننا دعاة سلام وإسلام، نجاهد من أجل الحق وإعلاء كلمة الله.

- وما هى خططكم؟ لقد رأينا منكم فنونًا لم نعهدها فيكم، وأى الوجوه تلبسونها ساعة المعمعة؟ لقد حدثنا من قاتلوكم أنكم تلبسون وجوهًا غير وجوهكم وجلودًا غير جلودكم، وتمسكون سيوفًا غير سيوفكم، فكيف تصنعون ذلك؟

- هى وجوه المسلمين فى الحرب باسمة فى السلم. أما السيوف والجلود فهى سيوف المسلمين وجلودهم كساها الإسلام رهبة وألبسها جلالاً. أما الخطط فلا أدرى يا سيدى فيما يفكر عمرو؟ ولا أعلم سوى أننى رسوله إليك.

اندهش أرطبون من هذا الذكاء وهذه اللباقة، وهو لا يدرى حتى الآن أنه عمرو نفسه، وبعد أن أطرق مليًّا صاح فى كبرياء:

أبلغ قائدك أننا قد جمعنا له الجموع وأعددنا له العدة، وسوف لايجد عندنا إلا ضربًا وطعنًا لم يذقه من قبل! أبلغه أن قوة الروم العاتية قد احتشدت فى جيش أرطبون، وأن فلسطين ستكون الفاصلة بيننا وبينه، لا إسلام ولا جزية، بل السيف والرمح، أسمعت؟

ولم يبد على عمرو ما ينبىء بحقيقته، إلا أن الأرطبون قد أخذ بحديثه وذكائه وجعل يتفرس هذا العربى الذى جاءه موفدًا من قائد المسلمين، ويستجمع كل ما يعرفه عن صفات عمرو، حتى رجح لديه أنه قد يكون "عمرو بن العاص" بنفسه، وإلا فهو أحد الأمراء ولا ينبغى له أن يفلت من يده. فأوحى إلى أبواب الحصن أن يقتله إذا مر به خارجًا، ثم أظهر البشاشة له، وأمر له بجائزة كبيرة، فأنطلق يريد الباب. وقبل أن يصله دنا منه عربى شهم من نصارى غسان فى بلاد الشام وهمس فى أذنه بأن يحسن الخروج كما أحسن الدخول. وكان هذا العربى قد علم ما أضمره أريطبون، وانتظر حتى خرج عمرو ثم ألقى إليه هذه العبارة واثقًا من ذكائه، وتركه يردد فى نفسه "أحسنت الدخول فأحسن الخروج". ولم يطل الوقوف بعمرو، فرجع بجائزته سريعًا إلى أريطبون. واستأذن عليه فدهش لعودته وصاح مستفسرًا عن حاجته أو عما نسى.

- لم أنس يا سيدى شيئًا ، ولكننى عدت لأكرر شكرى على هذه الجائزة العظيمة، وأرجو أن يصلك شكر غيرى على نعمتك وجزيل كرمك.

- شكر غيرك؟! إن الجائزة لك وحدك!

- وكيف أستطيع أن أختص بها، ولى أبناء عم وإخوة عشرة على الأقل، وقد نظرت فى هذه الجائزة فرأيت أنها لا تعجبهم جميعًا، فعدت إليك لأرجوك لهم، فقد أحببت أن يعم معروفك.

- نأمر بعشرة أضعاف هذه الجائزة وتحملها إليهم.

- وحمد تلك الألسنة يا سيدى؟ ألا تحب أن تسمع شكرها جميعًا، إن لكل منهم لسانًا مثل لسانى وجنانًا مثل جنانى، إذا كان سرك هذا اللسان وذلك الجنان، فسوف تجد منهم أكثر مما رأيت منى.

- ترى أن تحضرهم إلى هنا؟

- نعم يا سيدى، لتسألهم ويجيبوا، وتعطيهم ويشكروا، ثم يعودوا بثناء ليتردد بين العرب وأنت عليم بأثر هذا الثناء.

- حسنًا أيها الرسول اللبق! اذهب وائتنى بهم.

وذهب عمرو يبتدر الباب، وقد بعث أريطبون إلى البواب أن يتركه، ورءوس عشرة من عظماء العرب تتراقص فى مخيلته يخالها تطير على حد سيفه غنيمة من جند عمرو، معتقدًا أن هذا الرسول سيقبل بهم إلى حتفهم. فتح الباب واجتازه عمرو فى جد واهتمام أقنع من شاهدوه أنه عازم على العودة بإخوته وأبناء عمه. وعندما ابتعد عن الحصن التفت إليه ضاحكًا، ورفع يديه شكرًا لله على هذا الإلهام

الذى يسعفه فى أحرج المواقف. وبعد أن وصل إلى معسكره نثر الجائزة بين جنده، ووجوههم تفيض عجبًا وعمرو يقص عليهم ما كان.

معركة أجنادين الفاصلة

استطاع القائد العربى أن يتعرف بنفسه على كل ما خفى عليه واكتشف مواطن الضعف فى الأسوار من الداخل، مما أتاح له أن يضع خطة محكمة ويرتب صفوف الجيش المختلفة. ثم زحف بجنده إلى جيش أريطبون فى أجنادين، واشتبك معه فى قتال عنيف، وشدد الحصار على الحصن حتى أحس أريطبون وجنوده أن لا قبل لهم بعمرو وجيشه، ففروا فى ثمانين ألفًا ملتجئين إلى إيلياء (القدس). وانتهت معركة أجنادين الفاصلة بانتصار العرب انتصارًا حاسمًا فى عام ٦٣٨م (١٥ هجرية) وهى غير معركة أجنادين الأولى التى وقعت قبل ذلك بسنتين. لقد كانت معركة أجنادين هزيمة لاستراتيجية هرقل التى اعتمدت الهجوم العام المضاد، ولكن عندما انتهى خبرها إليه سقط فى يده وامتلأت نفسه رعبًا فنقل مقر قيادته من حمص إلى أنطاكية(١) وهو الذى كان يريد نقلها إلى موقع أمامى فى فلسطين.

حصار القدس

لم يغب عن ذهن عمرو ما لعمليات المطاردة من أهمية فى استثمار الفوز فتقدم على الفور فى إثر فلول العدو وضرب حصارًا محكمًا على أسوار القدس. قال المسيب الغزاوى "ما نزلنا ببلد فى فتوح الشام فما رأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس. نزلنا

١- ابن الأثير: ج (٢) - ص (٤١٧).

بإزائهم ومضت ثلاثة أيام فلم يكلمنا منهم أحد، غير أن حرسهم شديد وعدتهم كاملة". وقد حصنوا أسوارهم بالمجانيق والغرادات والطوارق، وتسلح المدافعون بالسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخر. وفى رابع يوم الحصار تنكب يزيد بن أبى سفيان سلاحه ودنا من السور ومعه مترجم لدعوة أهل المدينة إلى الإسلام أو أداء الجزية أو الحرب فلم يستجيبوا واستمر الحصار على أشده طوال أربعة أشهر والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر حتى علم المحاصرون أن لا جدوى لهم من الاستمرار على هذا الحال فطلبوا الصلح على أن يوقعه الخليفة بنفسه فأرسل إليه عمرو يعلمه بذلك. وكان عمر بن الخطاب قد أقبل على الشام حينما أبطأ الحصار، وكتب إلى القادة الآخرين الذين لا يجدون فى نواحيهم كبير قتال أن يقابلوه فى موقع الجابية. فلما بلغته رسالة عمرو بن العاص أسرع إلى القدس.

فتح مدينة أولى القبلتين

وعندما أشرف عمر بن الخطاب على القدس اجتمع بالجند وخطب فيهم لرفع روحهم المعنوية، وقبل صلاة الظهر قال له الناس: "يا أمير المؤمنين اسأل بلالاً أن يؤذن لنا" فقال له عمر: "يا بلال إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون أن تؤذّن لهم وتذّكرهم أوقات نبيهم صلى الله عليه وسلم". فصعد بلال إلى قمة جبل المكبر كما يؤكد أهل قرية صور باهر أبًا عن جد وباشر بلال بالتكبير. وعندما وصل فى أذانه "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله" بكى الناس بكاء شديدًا حتى كادت قلوبهم أن تتصدع عند ذكر الله ورسوله. ثم تحرك عمر بن الخطاب حتى وقف بإزاء السور وتأكد المحصورون منه، ففتحوا الباب وخرجوا إليه مسرعين يسألونه العهد

والميثاق والذمة ويقرون له بالجزية فطمأنهم وعادوا إلى الداخل ولم يغلقوا الباب، ورجع عمر إلى معسكره فبات ليلة ثم دخل المدينة صباح يوم الإثنين وأقام بها إلى يوم الجمعة وسط محراب وهو موضع مسجده اليوم. وتسلم المدينة رسميا من البطريرك صفرونيوس "Sophronius" وتعهد لأهل المدينة بأن لا يبقى معهم أحد من اليهود بناءً على طلبهم. ثم كتب عقد الصلح (العهدة العمرية/ وثيقة الأمان)، وقد جاء فى العقد ما يلى :"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان - أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها - لا تُسكن ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصليبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صليبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد - وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية - ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ هـ".

عندما اتفق الطرفان على هذه الشروط وتم توقيعها طلب عمر من البطريرك أن يدله على مسجد داود، فأسرع البطريرك وسار مع الخليفة الذى كان يمشى وراءه أربعة آلاف من رجاله إلى أن وصلوا إلى كنيسة القيامة، فأشار إليها البطريرك بأنها فى موضع هيكل داود فاحتد عمر وقال بغلظة: لقد كذبت، وسارع بمغادرة المكان عندما حان وقت الصلاة، فدعاه البطريرك لأن يصلى حيث يقف فى الكنيسة ذاتها، ولكن عمر رفض أن يصلى هناك. ثم أخذوه إلى كنسية قسطنطين وصلى على مرمى حجر منها. وعندما سأله البطريرك عن رفضه الصلاة فى الداخل، أجاب: أخشى أن يقول المسلمون هنا صلى عمر ويتخذوها مسجدًا. ولذلك شيد فى الخارج مسجدًا لايزال قائمًا (يُسمى جامع عمر) مقابل كنيسة القيامة الآن. إن هذا التحفظ النزيه فى كتابة الميثاق، لوضع حدا لما يخامر أصحابه من الطمع، لا يمكن إلا أن ينتزع إعجاب العالم بالفاروق. ومهما بلغنا من التمدن فى هذا القرن فإننا لا نتصور أن هناك ما هو أشرف من هذه الصفات التى تحلى بها المسلمون عندما فُتحت القدس سلمًا لأول مرة فى التاريخ، ولم يتكرر فتحها سلمًا أيضًا إلا فى عهد صلاح الدين. توّجه الموكب إلى (صهيون) التى قال عنها البطريرك إنها مسجد داود فأجابه الخليفة بحدة مرة أخرى: هذا كذب. ثم توجهوا إلى مسجد بيت المقدس حتى وقفوا بما يسمى (باب محمد) الذى كانت القمامة تسد بابه ، وهنا قال البطريرك: لا نستطيع الدخول إلا زحفًا على الأيدى والركب. فقال عمر: فليكن ذلك. تقدم البطريرك ولحقه عمر وباقى الموكب وخروا

على الركب وزحفوا حتى نفذوا إلى ساحة المسجد حيث استطاعوا أن يقفوا منتصبين. وبعد أن تفرس عمر بالمكان طويلاً ارتفع صوته قائلاً: والذى نفس عمر بيده إنه لمسجد داود الذى وصفه لنا نبينا عليه السلام فى الإسراء والمعراج. وهذه هى الصخرة التى ذكر النبى أن النصارى طمروها بالقمامة نكاية ببنى إسرائيل، ثم هبط عمر إلى الأرض وأخذ يجمع القمامة ويحملها فى كمه ليرميها بعيدًا. واقتدى به سائر المسلمين حتى نظفوا المكان وبانت الصخرة للعيان. ولما انتهوا من ذلك طلب منهم أن لا يصلوا هناك حتى تنزل ثلاث زخات من المطر فتغسلها.

وهناك رواية أخرى تقول إن عمر طلب من كعب الأحبار اليهودى والذى كان قد أسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وقال له: يا أبا إسحق ألا تعرف مكان الصخرة؟ فأجاب كعب: بلى إننى أعرفها، إنها تبعد كذا وكذا من الأذرع عن السور الذى يحاذى وادى جهنم (وادى قدرون) وعليها اليوم تل من القمامة، ولدى البحث فى المكان الذى عينه كعب ظهرت الصخرة. ثم سأله عمر: أين نبنى المسجد؟ فأجاب كعب: خلف الصخرة حتى تجتمع قبلتا محمد وموسى. فاحتد عمر وعنفه قائلاً: إنك مازلت تحن إلى يهوديتك السابقة. أما أنا فأرى أن أنسب مكان لبناء المسجد هو قبليها لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قبلة مساجدنا فى صدورها - إننى لم أومر باستقبال الصخرة بل باستقبال الكعبة. وأمر ببناء المسجد وهو مكان المسجد الأقصى الحالى الذى وسعه الوليد بن عبد الملك فيما بعد.

حين دخول جند الإسلام إلى بيت المقدس وهم يرتلون الآية الأولى

من ســـورة الإســراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١] أخذ القائد عمرو بن العاص يبحث عن أريطبون حتى كبر ظنه أنه قد قتل، ولكنه عرف فيما بعد أنه فر إلى مصر ليحشد جيشًا آخر ينازل به العرب، فأطرق هذا القائد الكبير يفكر، وأدرك بثاقب بصره أن الشام لا تأمن إلا بمصر، ولا تأمن مصر إلا بالشام، فاستعد لفتح جديد.

الفصل الثانى

حملة صلاح الدين الأيوبى

(عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م)

مقدمة

لما شب صلاح الدين عن الطوق، زار مصر ثلاث مرات فى جيش نور الدين الزنكى. وكان عمه وزيرًا فاطميا إلى جانب منصبه العسكرى فى خدمة نور الدين، ولم يلبث صلاح الدين أن ورث عمه فى الوظيفتين، واستطاع أن يوفق بين الأمور العسكرية والسياسية زهاء السنتين والنصف (٢٣/ ٣/ ١١٦٩م - ١٣/ ٩/ ١١٧١م). وهى الفترة التى خبر فيها نظام الدولة الفاطمية وفنونها فى أساليب القتال عن كثب، فزادت خبرته السابقة التى اكتسبها وهو فى خدمة نور الدين. وجدير بالذكر أن الدولة الفاطمية تغلبت عليها الصفة البحرية بحكم إطلالها على الساحل الجنوبى من البحر المتوسط، على عكس الدولة الزنكية النورية، فهى بحكم موقعها الجغرافى دولة برية، وتعد أحد فروع الدولة السلجوقية العظمى التى اصطبغت بالصبغة العسكرية فى حركتها التوسعية إلى البوسفور غربًا وبلاد الشام وأطراف البلاد المصرية جنوبًا.

اقتبس صلاح الدين ما لاءمه من النظم الحربية الفاطمية، ولا سيما فى تجنيد المرتزقة من جميع الأجناس. وانصرف إلى أعمال التحصين والإعداد الداخلى وتأسيس قاعدة قوية فى مصر. وعزز البحرية وأنشأ لها ديوان الأسطول وأسند شئونها إلى أمير البحر، أو أمير الماء، وهو المصطلح العسكرى الذى انتقل إلى اللغات الإفرنجية الأخرى فصار

فى الإنجليزية Admiral وفى الفرنسية Amiral. أسند الأمور البحرية البحتة إلى رئيس عارف بالريح والمجاديف والإرساء وله دراية بمسالك البحار ومجاريها، واختار الحاجب الشيخ حسام الدين اللؤلؤ أميرًا للبحار الذى كان يطلق عليه مُقدَّم الأسطول. وكان صلاح الدين يقسم قواته المسلحة إلى جندِ احتياط وعساكر ثابتة. فالجند هم أتباع الأمراء الذين ينفرون بهم إلى حروب السلطان مقابل إقطاعاتهم، أما العسكر فهم جيش السلطان النظامى الثابت. وكانوا فى عصر صلاح الدين فرسانًا من الأكراد والترك والتركمان، يصرف للواحد منهم جزدان وصولق وبقجة وتركاش. واستخدم صلاح الدين الحَمَام الهوادى لنقل الأخبار، فوزع رجالاً على كل ثغر ومعهم حمام المدينة التى تجاورهم، فإذا ما رأوا أو سمعوا أمرًا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه إلى المدينة التى هو منها فى ساعته فتنتقل الرقعة من طائر إلى آخر حتى تصل إلى الجهة المطلوبة.

إن المواجهة العسكرية مع الصلبين تحتم عليه النظر فى تحصين القاهرة ودعم المنظومة الدفاعية للمدن أمام أى غزو صليبى محتمل. فأحاط المدن بأسوار قوية تحميها من أى عدوان خارجى وخاصة القاهرة، ودعم الأسوار التى بناها الفاطميون بمزيد من الأسوار والأبراج، وزود القاهرة بقلعة منيعة (عرفت باسمه) تتحكم فى الدفاع عن عاصمة الدولة.

حركة نواة الحملات

غادر صلاح الدين القاهرة قاصدًا دمشق يوم ١١/ ٥/ ١١٨٢م الموافق ٥ من المحرم سنة ٥٧٨ هجرية فى نصف عسكره ليستقر

فيها ويتخذها قاعدة أمامية يواصل منها هجماته ويكون قريبًا من فلسطين. وترك النصف الآخر لحفظ الثغور والأمن فى مصر، قاعدته الرئيسية، التى أمدته بالتموين والرجال. وقد عهد إلى وزير أشغاله إتمام التحصينيات التى بدأها حول القاهرة ولا سيما القلعة، وكان محور تقدمه طريق صدر أيلة، عبر سيناء الوسطى.

وقد أظهر لأول مرة فى التاريخ القيمة الحربية لهذا الطريق، فشيد على جانبيه القلاع والحصون وأقام له الحاميات، فأمن طريقا حربيًا خطيرًا، تتلمسه النجدات والقوافل فى غدواتها بين شرق العالم العربى[١] وغربه. وعندما وصل إلى عقبة أيلة جاءه البريد باجتماع الصليبيين فى مدينة الكرك لقطع طريقه، فاحتاط للأمر وأرسل إلى أخيه ونائبه فى دمشق عز الدين يأمره باغتنام فرصة ذهابهم إلى الكرك والإغارة على مواقعهم. فسار إلى طبرية وعكا، واستطاع أن يستولى على دبورية وما حولهما من القرى وعلى قلعة حصينة ذات مركز سوقى هام قرب بانياس، وتسيطر على مواصلات الصليبيين وقد أسر ألف صليبى وغنم عشرين ألف رأس من الماعز. ثم واصل صلاح الدين تقدمه بالعساكر المقاتله وأخذ يشن الغارات هنا وهناك، على حين أمر أخاه تاج الملوك بأن يسير بالأثقال وأصحاب المتاجر يمنة منه، وكان محور تقدمه حى وقبة شتار والقريتين قرب الشوبك وبلدة الأزرق قرب الكرك حيث التقى بعد أسبوع بأخيه تاج الملوك. ولم يجرؤ أحد من العدو على الاشتباك معه، فاستمر فى الزحف حتى لقيه فى الطريق عز الدين وأخيرا وصلت قوات الحملة إلى قاعدتهم الأمامية فى دمشق يوم الإثنين الموافق ٢٢/ ٦/ ١١٨٢م.

المناوشات الرئيسية

لم يشأ صلاح الدين أن يتحرش بالدويلات والإمارات الاسلامية التى عقد معها هدنة منذ سنتين، ولذا ولى وجهه شطر الصليبيين الدخلاء الذين نقضوا الهدنة ولم ينقطع عدوانهم؛ فأرسل إلى مصر يطلب إلى أخيه العادل تجهيز الأسطول المصرى لمقابلته على الساحل الصليبى، وخرج هو من دمشق مغيرا على نواحى طبرية وبيسان، فتجمع الصليبيون تحت جبل كوكب قرب بصره ورماهم المسلمون بالنشاب فلم يتحركوا لقتالهم بل لجأوا إلى حاميتهم فى مفريلا. وبعد أن أثخن فيهم صلاح الدين عاد إلى دمشق وتحول إلى بيروت بعد وصول الأسطول المصرى إليها لمحاصرتها. ولكنه تبين له أن إمارة الموصل عقدت معاهدة دفاعية هجومية مع الصليبيين كى يضعوا صلاح الدين بين فكى كماشة.

فى سبيل توحيد القوى

فضل صلاح الدين الرحيل عن بيروت والاتجاه نحو مسألة التوحيد للقوى الإسلامية تحت يده ليتفرغ للعدو الدخيل.

وأوقف صلاح الدين الخليفة العباسى على خطته التى وضعها لمواجهة تحالف المواصلة مع الصليبيين بفتح جبهات اربع. فأمر أخاه العادل بمهاجمة جنوب فلسطين من ناحية الحدود المصرية، ورتب فى رأس الماء بدمشق بإزاء الصليبيين ابن أخيه، وأمر عسكر الشام باتخاذ وضعية الدفاع، أما هو فتحرك بجيشه النظامى المصرى صوب حلب والموصل. ومعنى هذا أن صلاح الدين كان قادرا على منازلة أعدائه من المسلمين والصليبيين فى آن واحد معتمدا على

قاعدته الرئيسية فى مصر التى أخذت تمده بالأموال والرجال، ومعناه أيضا أن صلاح كان بعيد النظر فى إرجائه إعلان الجهاد الحقيقى ضد الصليبيين إلى ما بعد تصفية مشاكله العظمى مع أمراء المسلمين ليأمن جانبهم ويستعين بهم فى جبهة إسلامية موحدة.

وقد اغتنم أرناط (أرنوك، أمير الكرك) هذه الفرصة وعاود تفكيره فى مشروعه الخاص بغزو مكة والمدينة برا وبحرا. ويبدو جليا أن المسلمين فزعوا أشد الفزع لأنهم لم يعهدوا ببحرهم أى اجنبى. ولا شك أن الخونة من الأدلاء أرشدوهم على المسالك البرية، وقد وصلت هذه الأخبار إلى صلاح الدين وهو على أسوار الموصل. فأوعز إلى أمير البحر بحمل المراكب مفككة إلى السويس، وهناك أشرف على تركيبها فى بداية عام ١١٨٣م واستطاع أن يبيد قوات العدو قبل تحقيق أهدافها. وعندما عاد صلاح الدين إلى قاعدته الأمامية فى دمشق عزم على محاصرة الكرك وتأديب أرناط الذى نجا بأعجوبة من الأسطوال المصرى. فأمر أخاه العادل بمصر أن يستعد لموافاته على حصن الكرك.

استئناف المناوشات

لم يطل مقام صلاح الدين بدمشق بل اتجه إلى شمالى فلسطين وعبر نهر الأردن الفاصل بين المسلمين والصليبيين، واتجه إلى بيسان وأغار عليها، ثم تقدم إلى عين جالوت وخيم بها، على حين تفرقت كشافته فى الطرق المؤدية إلى قلاع الصليبيين لتستطلع أخبارهم فصادفت نجدتى الكوكب والشوبك فقاتلتهما وأسرت مائة أسير. أما قوات الصليبيين الرئيسية فاحتشدت بصفورية فى عشرين

ألف راجل وثلاثة آلاف فارس، وسارت لملاقاة صلاح الدين بعين جالوت، فرتب لهم يمنة ويسرة وقلبا وأفرز لهم قوة لمناوشتهم واجتذابهم، ولكن العدو أعطى ظهره إلى الجبل وأحجم عن الإقدام، ووقف الجيشان وجها لوجه خمسة أيام. ورحل صلاح الدين نحو الطور علهم يخرجون من مكمنهم فإذا بهم ينكصون على أعقابهم إلى الناصرة.

وعمل صلاح الدين بمشورة أصحابه بالعودة إلى دمشق فوصلها فى نهاية تشرين الأول عام ١١٨٣ بعد أن ضرب من الحصون حصن بيسان وكفر بلا وزرعين وجنين ومن الأبراج عشرة. وبعد أن استراح أسبوعين توجه إلى الكرك وعليها تقابل مع عساكر مصر بقيادة أخيه الملك العادل وحاصر الحصن دون أن يستولى عليه، فرجع إلى دمشق لحضور اجتماع عام لسفراء الأمراء المسلمين. وأهمية هذا الاجتماع السياسى الخطير أنه اعتراف رسمى باحتضان صلاح الدين لفكرة الجهاد واستحقاقه لتزعم كلمتهم، إلا أن الموصل ظلت شوكة إسلامية فى ظهره، ففاتت عليه فرصة استغلال هذا الاجتماع فى مباغتة الصليبيين. ولكنه عاود الكرة على الكرك، وكاد أن يحتله لولا أن زوجة أرناط بعثت له رسالة وهدية عرس ترجوه هدنة قصيرة حتى تتم حفلة زفاف ابنها. فاستغل أرناط هذه الفرصة واستنجد بالصليبيين. فتوجه صلاح الدين لمنازلتها فى الواله قرب حسبان، ولكنها أفلتت منه ودخلت حصن الكرك. ولذلك فضل التوجه إلى نابلس. فأغار عليها واستولى على جنين، ثم عاد إلى قاعدته فى دمشق للتفاوض فى قضية الموصل، ولم يتوصل إلى نتيجة، فحاصرها مرتين وتم الصلح والقضاء على المعاهدة الزنكية الصليبية التى دامت

أربع سنوات. فتمكن صلاح الدين من حشد عساكر الموصل وسنجار والجزيرة وأربيل وحران وديار بكر فى صعيد واحد، فينفث فيها من روحه وطبعها بطابع النظام والطاعة بعد أن كانت متنافرة متقاطعة فى إمارات مختلفة، فحقق بذلك الشطر الأول من حلم توحيد كلمة المسلمين معنويا وماديا تحت زعامة رجل واحد.

أضحى صلاح الدين سلطانا فى إمبراطورية إسلامية واسعة، أطرافها دجلة والفرات شرقا، وتونس غربا، وأرمينية شمالا، واليمن والنوبة جنوبا. وكون جيشا إقطاعيا إسلاميا بلغ به ذورة المجد والانتصار على الصليبيين رغم ما بهذا الجيش من نقائص تتعلق بالنظام الإقطاعى.

الموقف السوقى لدى المسلمين

امتازت منطقتهم باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقا وغربا بقواعد آمنة وقلاع حصينة، فغدت القاهرة قاعدة رئيسية لتدريب الجند وإعداده وتموينه، وإليها ترسل الجرحى والأسرى، ومنها تطلب التعزيزات والتموينات لسد النقص. على حين غدت دمشق قاعدة أمامية لوضع الخطط وبذل الجهود السياسية. ولم يكن معروفا على وجه التحديد عدد الفرسان والرجالة التى يقدمها كل أمير إلى صلاح الدين للخدمة، ولا نوع التنظيمات العسكرية فى الإقطاع الإسلامى الشرقى لعدم اهتمام المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة بهذه الناحية، وإن كان من المعروف أن شئون الجيش من تجنيد وتجهيز على عهد الأيوبيين أشرفت عليها إدارة اسمها ديوان الجيش وحينا ديوان الإقطاع.

لدى الصليبيين

لم يستطع الصليبيون من البداية حتى النهاية أن يحتلوا الأجزاء الإسلامية الداخلية، واقتصر احتلالهم على الأجزاء التى تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج، وعلى سلسلة القلاع الضخمة لضمان الحماية والدفاع ضد أى هجوم، فسوقيتهم تنحصر فى الحصون للحماية والدفاع، وفى البحر للتموين والتجهيز. فصارت الصحراء فى الجنوب هى الحد الفاصل لمملكة بيت المقدس الممتدة من البحر المتوسط إلى البحر الميت، وجعل الصليبيون على طول هذا الحد الجنوبى سلسلة من القلاع الحصينة المبتدئة مَن ذعيرة جنوبى بحيرة طبرية، ثم الكرك ومونتريال وساموا والكرمل وبيت جبريل وداروم، وخلف هذا الخط كانت قلاع بوفورت وشطنوف وفوار وصفد والقسطل وغيرها. وامتازت هذه الحدود الصليبية بأن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية، من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ومسائل دينية وصحية.

طرق الاقتراب

كان أمام الصليبيين طريقا اقتراب من أوربا إلى الشرق، أحدهما برا عن طريق القسطنطينية عبر جنوبى آسيا الصغرى من أرمينيا السفلى وسوريا، والآخر بحرا من موانى البحر الأبيض المتوسط إلى الساحل الشرقى الممتد من أنطاكيا فى يافا. وكان الطريق الأول عبارة عن مسير طويل لمسافة تقارب ١٦٠٠ كيلو متر بالإضافة على المسافة التى قطعتها مختلف المفارز وهى متجهة إلى منطقة الحشد

فى القسطنطينية. أما طريق الاقتراب البحرى فإنه يعادل نفس المسافة تقريبا من جنوبى إيطاليا وصقلية بالإضافة إلى ٩٦٦ كيلو مترا من جنوبى فرنسا و٣.٢٢٢٠ كيلو مترا من إنكلترا.

أساليب القتال

كانت آسيا الصغرى، التى يخترقها طريق الاقتراب البرى، محتلة احتلالا عسكريا فقط من قبل الدولة السلجوقية. وظل معظم رعايا هذه البلاد مواليا للصليبيين. فالولايات الأرمنية جنوب شرقى آسيا الصغرى استطاعت، عن رغبة، أن تساعدهم مساعدة فعالة، غير أن الجنود الأوروبيين كانوا يواجهون كلما أوغلوا فى البلاد عدوا من نوع آخر يقاتل بأساليب مختلفة، وتعبئة لم يعهدوها أو يستعدوا لها. وقد تألفت جيوش المسلمين، عموما، من رماة سهام راكبين ومسلحين بأقواس خفيفة، ويجيدون استعمالها وهم على ظهور الخيل ولو كانوا منسحبين. وكانوا يمتطون خيولا قوية أصغر حجما وغير مثقلة بالأحمال، ويتحركون فى تشكيلات مفتوحة، وينضمون بسرعة لشن هجماتهم ثم يتفرقون مرة أخرى عند الضرورة. وهم فى ذلك تفوقوا على العدو المثقل كاهله بالدروع والأسلحة المركبة. وقد استطاعوا أن يظلوا بعيدين عن العدو دون التماس معه إلى أن تحين فرصتهم الملائمة للهجوم، وأن يصطنعوا أمامه الهرب لإيقاعة فى شرك كمين، أو ينسحبوا فعلا انسحابا بعيد المدى لإنهاك قواه وعزله عن قاعدته، فيطوقونه ويضربون جناحيه ومؤخرته ويعطلون سيره أو يجرونه على التوقف والمنازلة، كما كان باستطاعتهم الحفاظ على معدل عال فى الرماية. وعلى الرغم من أن الفرسان الأوروبيين يرتدون دروعا مقاومة للسهام إلا أن خيولهم كانت أكثر عرضة للخطر، فكثرت

خسائرها نظرا لأن هؤلاء الفرسان اعتمدوا اعتمادا رئيسيا على مناعة اندفاعهم الجماعى الراكب لكسب النصر، وكانت هذه الخسائر الجسيمة فى خيولهم تحد من فاعليتهم، كما أن تشكيلات قوات المسلمين نادرا ما تقدم لهم أهدافا مناسبة لشن مثل هذا الهجوم، لأنهم تمكنوا بخفة حركتهم أن يتخلصوا من هذا الخطر فى كثير من الأحيان انتظارا للحظة الحاسمة عندما يتشتت هؤلاء الفرسان ويصيبهم التعب، وتضعف روحهم المعنوية، فيطوقونهم ويجهزون عليهم بأسلحتهم الخفيفة. وكانت هذه التعبئة هى تعبير منطقى للمبدأ الذى يتطلب من القائد أن يتفوق على خصمه بكل وسيلة ممكنة قبل الاشتباك معه، فظلوا بعيدين ومحتفظين بحرية الاختيار فى الاشتباك أو قطع التماس دون أن يورطوا أنفسهم فى القتال القريب إلا بعد أن يهيئوا الفرصة المواتية بالنار والحركة.

إعلان الجهاد

نقض أرناط الهدنة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس باعتراضه القافلة المصرية قرب الكرك، فاعتبر صلاح الدين هذه الحادثة إعلانا بالعدوان وانتهاء للهدنة، وأرسل فى طلب الجند من مصر وسوريا وحلب والجزيرة ودياربكر، استنفر الناس للجهاد وتهيأ الرأى لعام الإسلامى للحرب. خرج صلاح الدين من دمشق مسرع إلى الجنوب فى ١٣/ ٣/ ١١٨٧ (أول المحرم ٥٨٣) وترك ابنه الملك الأفضل عند رأس الماء قرب دمشق فى انتظار العساكر القادمة من الشمال، وتقدم هو إلى موضع اسمه قصر السلام قرب بصرى والكرك ليمنع أرناط من اعتراض الحجاج، ولكنه لم يجرؤ على ذلك.

التقت القوات المصرية القادمة عن طريق أيلة بقيادة الملك العادل مع صلاح الدين فى القريتين قرب الكرك، كما استعد الأسطول المصرى بقيادة أمير البحر لؤلؤ للجهاد. أما الملك الأفضل فاحتشد عنده عناصر الجيش المختلفة وتقدم نحو عكا بعد أن وافق ريموند أمير طرابلس وصديق صلاح الدين فى ذلك الوقت على مروره ببلاده فى شكل مظاهرة حربية لا تستغرق أكثر من اثنتى عشرة ساعة. ومرت المظاهرة فى سبعة آلاف فارس من المسلمين وتقابلت فى طريقها عند صفورية بكوكبة من فرسان الملك غاى (Guy) مؤلفة من عنصرى الاسبتار والداوية (Hospitallers & Tempellers)، فكان النصر للمسلمين فى تلك المفاجأة، ومات مقدم الاسبتار على حين أفلت زميله مقدم الداوية ووقع الباقون فى الأسر والقتل. وعلم صلاح الدين بهذا النصر وهو لا يزال على الكرك، فتحرك لساعته حتى وصل طبرية فى منتصف آب عام ١١٨٧ وتقابل مع ابنة الملك الأفضل وتمركز عشترى. أما الملك العادل فعاد بعساكره إلى مصر بعد أن اتفق مع أخيه صلاح الدين على مشروع غزو فلسطين.

حطين الفاصلة

اجتمع صلاح الدين فى عشترى بهيئة أركان حربه وعرض عليهم عزمه على غزو فلسطين والساحل من ناحية طبرية على أساس المبادهة بالهجوم، فوضعوا الخطط الكفيلة بذلك ثم استعرض صلاح عساكره النظامية وعددها اثنا عشر ألف فارس من أصحاب الإقطاعات والرواتب، على حين بلغت مشاته ثلاثة عشر ألفا، عدا الاحتياطى والمتطوعة وهم كثيرون. وتحرك بهذا الجيش يوم الجمعة ٢٦/ ٦/ ١١٧٨ إلى الأقحوانة قرب طبرية. وعندما علم بتجمع

الصليبيين فى صفورية أشار عليه معظم قواده بعدم المبادهة بالهجوم، بل اتباع الطريق القديمة من إغارات متكررة ونهب وسبى فى بلاد العدو حتى تضعف مقاومته أولا ثم توجيه الضربة القاضية. وأشار فريق الأقلية بالدخول سريعا فى معركة فاصلة، لأن تنفيذ الخطة الأولى يزعزع ثقة الجند بصلاح الدين، ولا سيما جند البلاد الشرقية الذين جاءوا للجهاد والحرب الحامية السريعة لا البارده البطيئة، ورجح صلاح الدين الخطة الثانية، ولذا تحرك من الأقحوانة وتمركز قرب بلدة الصبيرة غرب بحيرة طبرية مقابل الصليبيين المتمركزين عند صفورية، ثم دار صلاح الدين بجزء من جيشه وهاجم طبرية ليلا. وكان الصليبيون وقتذاك بصدد إحدى خطتين: إحداهما دفاعية، يتجمع الصليبيون بموجبها فى صفورية حتى يزحف صلاح الدين نحوهم، إذا شاء، فتنتاب جيوشه متاعب الطريق وقلة الماء. أما الخطة الثانية فكانت هجومية، يتقدم الصليبيون بموجبها للاشتباك بقوات صلاح الدين. واختار الصليبيون الخطة الثانية وأهملوا الأولى، لأنهم لم يثقوا بريموند واضعها. فزحفوا باتجاه طبرية صباح الجمعة ٣/ ٧/ ١١٨٧ فى عشرين ألفا، وقيل خمسين ألفا، وكانت المقدمة بقيادة ريموند والقلب بقيادة الملك فارى، وتكونت المؤخرة من فرسان الداوية والاسبتارية. وعندما علم بذلك صلاح الدين فرح وقال جاءنا ماانريد" لان قصده من محاصرة طبرية هو اجتذاب الصليبيين نحوه، ليتمكن من قتالهم فى معركة مكشوفة على أرض خالية ذات مناخ حار، واشتغل صلاح الدين طول ذلك اليوم بإعداد العدة لملاقاة الصليبيين وأخبرته طلائعه بحركتهم نحو لوبية وأن مقدمتهم جاوزتها إلى وادى المعلقة على بعد ثلاثة أميال من البحيرة وعسكرت فى

منحدرات التل المعروف بقرون حطين، وعندها قبر النبى شعيب، وتحتها قرية حطين مباشرة. أما القلب بقيادة الملك غاى فقد اضطر أن يقف جنوب مارسكاليا، كما عجزت المؤخرة عن اللحاق بالمقدمة والقلب لشدة المقاومة. وانتهى يوم الجمعة وبات الصليبيون ليلة السبت حائرين لانعدام الأكل والماء والنوم. على حين علت روح المسلمين المعنوية، وزادت ثقتهم بالنصر قبل الاشتباك الرئيسى، وباتوا ليلتهم فى تكبير وتهليل، وصلاح الدين يراقب نظامهم ويركز كل فرقة فى موضعها استعدادا للغد. وفى الصباح نشب القتال وحاول الصليبيون التقدم للوصول إلى ماء البحيرة وينابيع المياه الموجودة بوادى حمام حول قرية حطين، فمنعهم صلاح الدين وحاصرهم، وفرق فرسانهم عن مشاتهم، وفصل مؤخرتهم عن بقية الجيش، وأمر الزراقين فزرقوا هشيم الحشيش بالنار فتأجج تحت أقدام وحوافر الخيل. فاجتمع العطش وحر الشمس مع حر النار والدخان وحر زنبق السهام على الصليبيين. ولما رأى ريموند شدة الأمر جعل من ناحيته على القوات التى بقيادة تقى الدين ومظفر الدين، فأفسح هذان القائدان الماهران له الطريق وهو فى زخم هجومه كى يخرجا قواته من دائرة الحصار وقد حسب ذلك نصرا، ثم ما لبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأمت بمهارة مظفر الدين، ولم يجد ريموند سبيلا للخلاص بعد ذلك سوى محاولة الإفلات والهرب إلى إمارته فى طرابلس، ففنيت جنوده وضعفت صفوف الصليبيين لخروجه. كما لحق به رئيس الاسبتارية، وأمير بيت جبريل، وأمير صيدا، وصاحب أنطاكية. ومال المسلمون نحو طائفة ثانية من الصليبيين فأبادوها جميعا. أما الملك غاى ومن معه فأدرك أن لانجاة له من الموت إلا بمواصلة القتال، فحمل على

قوات الحصار حملة المستميت، ولكن المسلمين ظلوا محيطين به وسائر الصليبيين إحاطة السوار بالمعصم.

ثم حاول غاى محاولته الأخيرة حين صعد بجنوده إلى تل حطين، وأراد نصب خيامه للإقامة فى مكان مرتفع حتى تأتيه النجدة، وفطن صلاح الدين إلى ذلك، فأمر جنوده بالصعود خلفهم، وأسروهم عن بكرة أبيهم ومعهم الملك غاى. فانتهت بذلك معركة حطين بهزيمة مادية ومعنوية للصليبيين، فمن الناحية المادية خاض صلاح الدين المعركة فى جيش قوى ومهارة منقطعة النظير، فأحسن اختيار المكان والزمان عندما خيم بعسكره على طبرية حائلا بين العدو وبين الماء، وأعلن جهاده فى شهر تموز، أشد شهور السنة حرارة وأقلها ماء فى الصهاريج والغدران، ثم إن طبيعة أرض المعركة أدت إلى عجز المشاة عن أداء واجبهم على الوجه الأكمل، وهو حماية فرسانهم من الرماة (وهذا ما يعرف الآن بالتعاون فيما بين الدبابات والمشاة) . أما من الناحية المعنوية فكانت حطين هزيمة ساحقة للصليبيين، لأنهم فقدوا جميع قادتهم بين أسير وقتيل، ولأن جميع القلاع والمدن الصليبية أمست خلوا من الجنود ولا أمل لها ألبتة فى تكون جيوش جديدة على وجه السرعة للوقوف فى وجه صلاح الدين، وهذه فرصة لا تعوض.

استثمار الفوز

تحرك صلاح الدين بعد استراحة ثلاثة أيام نحو المدن الساحلية لأهميتها السوقية العظيمة لدى الصليبيين فى حماية مملكة بيت المقدس وإيصال النجدات الأوروبية لها، ولدى المسلمين فى تأمين خطوط

المواصلات بين الشام ومصر. ولذلك أوغر صلاح الدين إلى أخيه العادل بالزحف من مصر على الجنوب الغربى من فلسطين. أما هو فتقدم باتجاه عكا ليحكم طرفى الكماشة على بيت المقدس من الشمال والجنوب، وحاصر عكا ثم استولى عليها بدون قتال يوم الجمعة ١٠ /٧ كما استولت قواته الأخرى على بعض المواقع الساحلية، وزحف أخوه العادل من مصر الشرقية إلى ساحل فلسطين الجنوبى فاستولى على حصن مجدل يابا قرب الرملة وفتح يافا عنوة، وتوجه مظفر الدين على رأس قوته إلى الناصر فاستولى عليها بعد مقاومة ثم استولى على صفورية، وتوجه فى نفس الوقت الأميران بدر الدين وغرس الدين وآخرون بقواتهم إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وسلمت بعدها حيفا وأرسون، وطلب الأمير حسام الدين من خاله صلاح الدين أن يقطعه نابلس ونواحيها إذا هو فتحها فاجاب طلبه وتقدم نحوها مارا ببسطية، وفيها مشهد زكريا عليه السلام فأعاده مسجدا، ثم حاصر نابلس حتى سلمت كما سلمت إليه بلدة حصن الفولة ودبورية وجنين وزرعين والطور واللجون وبيسان وغيرها. ثم تحرك صلاح الدين إلى الشمال لتعزيز قوات ابن أخيه تقى الدين المحاصرة لحصن تبنين بين صور ودمشق فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس فضربها بالمجانيق يوم ١٦/ ٧ حتى سأل أهلها الأمان. ثم استولى على صرخد يوم ٢٩/ ٧، وفتح صيد وتقدم بمحاذاة الساحل واستولى على بيروت كما عرض عليه أمير جبيل الذى أسر فى حطين أن يسلمه المدينة مقابل إطلاق سراحه. فأجاب إلى طلبه، وبذلك رفع صلاح الدين عن أهالى صيدا وبيروت وجبيل وجلهم مسلمون ذل المستعمر. وعندما حاصر صلاح الدين مدينة

صور وجدها منيعة ففضل التحول إلى الجبهة الرئيسية فى الأرض المقدسة وتقدم إلى عسقلان يوم ٨/٢٠ مستوليا على الرملة ويبنة وبيت لحم والخليل، والتقى بأخيه الملك العادل وولده على عسقلان يوم ٢٢/ ٨ فحاصرها وباشر النقابون نقب أسوارها واشتد القتال على الباشورة، وبعد حصار دام أربعة عشر يوما سلمت المدينة مقابل إطلاق سراح الملك غاى أسير حطين بعد مضى سنة من هذا التاريخ، وأقام صلاح الدين بعسقلان حتى تسلم حصون الداوية بجنوب فلسطين وهى غزة وبيت جبريل، مقابل إطلاق سراح مقدم الداوية.

احتلال بيت المقدس

عندما تجمعت القوات المنتشرة فى السحل أصبح صلاح الدين مستعدا تمام الاستعداد للزحف على بيت المقدس. وفى يوم الأحد ٢٢/ ٩/ ١١٨٧ وصل صلاح الدين على رأس هذه القوات إلى ظاهر بيت المقدس، وأخذ يستكشف ويطوف بأسوارها خمسة أيام لوضع الخطة ثم خيم فى الجهة الشمالية يوم ٢٧/ ٩ ونصب مجانيقه فى هذه الناحية من المدينة، كما أخذ النقابون فى نقب السور المقابل لوادى جهنم (قدرون)، وأصبح باب القدس اصطفان (باب ستنا مريم) لا يقوى على الصمود. وذات يوم من أيام الحصار خرجت خيالة الصليبيين إلى ظاهر البلد لتحدى المسلمين وتمكنت من قتل الأمير عز الدين، فحمل عليهم المسلمون حملة رجل واحد وقذفوا بهم إلى داخل البلد. ثم تطور الاشتباك إلى قتال عام إذ رفض المسلمون الرجوع إلى مواقعهم بل أخذوا فى ردم الخندق والتصقوا بالسور يجدون فى نقبه على حين أخذ رماة المجانيق يوالون الرمى. ثم حشى بعض النقابين ثغرة فى السور بالأحطاب والأتبان وأشعلوا فيها النيران فامتلات بيت المقدس

دخانا ونيرانا حتى طلب أهلها التسليم - بعد حصار دام أربعة عشر يوما - على أساس أن يعطى كل رجل من الصليبيين عن نفسه عشرة دنانير مصرية، وكل امرأة خمسة دنانير، وكل صغير وصغيرة دينارين وتم تسليم بيت المقدس ليلة الجمعة ٢/ ١٠/ ١١٨٧ وهى ليلة معراج عام ٥٨٣ هـ. وقد ضرب صلاح الدين أروع الأمثلة فى العفو عند المقدرة فسامح الفقراء عن الفدية وعامل الشيوخ والنساء والأطفال معاملة تنطوى على كثير من السخاء والشهامة، وسمح للبطريك بتجريد كنيسة القيامة وغيرها من جميع نفائسها وقدرت أثمانها بأضعاف ما استحق من فدية، ودلل على رجاحة عقله وبعد نظره عندما لم يوافق على إلحاح حاشيته بهدم كنيسة القيامة. فأخذ المسيحيون يعودون إلى القدس ويزاولون حياتهم العادية، واتجه بعضهم إلى طرابلس وصور فرفض أميراهما إدخالهم حتى لا يتحملا مسئولية إطعامهم والدفاع عنهم ورغبت جماعة ثالثة فى الإبحار إلى أوربا فاعتذرت السفن التجارية الأوروبية عن حملهم بدون أجر لولا إرغام السلطات المصرية لتلك السفن على حملهم. وما أشد تأثر صلاح الدين عندما اجتمعت نسوة وأولاد الفرسان الصليبيين المأسورين والمجروحين يسألنه الرحمة والإنفاق عليهن فأجابهن إلى مطالبهن. وحسب الباحث أن يذكر هنا ما اقترفه الصليبيون من مجازر بشرية يوم دخولهم القدس فاتحين فى ١٥/ ٧/ ١٠٩٩ فقتلوا الأئمة والعلماء والعباد والزهاد ممن فارق الأوطان وجاور القدس الشريف، كما جمعوا اليهود فى معبد سليمان وأحرقوه عليهم. وأرسل غودفرى خطابا إلى البابا يصف له تلك المذابح الشنيعة بقوله أن "خيولنا كانت تخوض إلى الركب فى بحر من دماء الشرقيين".

استئناف الجهاد

وضحت الرحلة التالية تمام الوضوح عندما استحث الأمير سيف الدين نائب صيدا وبيروت صلاح الدين على متابعة الحرب الخاطفة وحصار صور. فلبى صلاح الدين وغادر القدس يوم الجمعة ٣/ ١٠/ ١١٨٧، ولكنه لم يستطع أن يستولى عليها برا أو بحرا فغادرها إلى عكا وحاول احتلال حصن كوكب، ثم عاد إلى قاعدته الأمامية فى دمشق واستقبل استقبال الفاتحين ثم تحرك إلى مصب نهر العاصى لمقابلة عساكر الشرق وغزو بلاد الساحل الشمالية. ومن عجيب الصدف أن يفتح صلاح الدين ست قلاع ومدن فى الرجالة بعضها إلى بعض. وليكن ذلك بهدوء وسكينة ودعاء بالنصر وإطراق وغض. وعندما تعود الفرسان من حملتها وتتكفىء إلى مراكزها وحملتها، تعود الرجالة إلى أماكنها على ذلك الكيان، وترتص فى مراكزها كارتصاص البنيان ويدل هذا القول دلالة واضحة على مدى التعاون بين صفوف القوات المسلحة فى جيش صلاح وعلى عظمة التعبئة الصلاحية. أما الصليبيون فقد استطاعوا أن يواصلوا التقدم، رغم غارات المسلمين عليهم أثناء الحركة فاحتلوا أرسوف ودخلها ريتشارد وأمضى بها يوم ٨/ ٩ ، ثم غادرها فى اليوم التالى إلى يافا، ولحقه هناك الأسطول بالتموين والآلات، فحاول احتلال القدس مرتين وباء بالفشل ثم جرى بينه وبين صلاح الدين صلح الرملة يوم ٢/ ٩/ ١١٩٢.

كان صلاح الدين فى هذه الآونة مقيما فى القدس، وأحس بوجوب الرجوع إلى قاعدته الرئيسية فى القاهرة، غير أنه أرجأ ذلك إلى ما بعد طوافه بمدن فلسطين لكشف أحوال الرعية، فتوجه إلى نابلس يوم

١٤/ ١٠ وزار بيسان وطبريا وقلعة صفد ثم بيروت وأخيرا وصل إلى قاعدته الأمامية فى دمشق يوم الأربعاء ٤/ ١١ حيث أصيب بالحمى الصفراوية وفاضت روحه الطاهرة قبل شروق الأربعاء ٤/ ٣/ ١١٩٣ ولما يبلغ من العمر خمس وخمسين سنة، بعد أن جعل معظم الشرق الأدنى جبهة متحدة ضد المستعمرين، وغير الجغرافية السياسية فى فلسطين وحصر الصليبيين فى شريط ساحلى ضيق بين يافا و أنطاكيا.

تصفيه الصليبيين

جرت تصفية الصليبيين على مرحلتين، وكانت المرحلة الأولى على عهد خلفاء صلاح الدين، وأشهرهم العادل والكامل والصالح. واستطاعوا أن يهزموا الصليبيين فى عدة مواقع، وجاءت فى عصرهم الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة وباءت جميعها بالفشل. أما المرحلة الثانية فكانت فى عهد المماليك ولا سيما الظاهر بيبرس وقلاوون اللذان طردا الصليبيين من أنطاكيا وطرابلس، فلم يلق لهم سوى مدن سور وبيروت وعكا. ثم جاء الأشرف خليل بن قلاوون واستولى على مدينة عكا عام ١٢٩١، مما أجبر الصليبيين على ترك المدينتين الأخريين.

فما أشبه اليوم الذى اغتصب فيه الصهاينة فلسطين، بالأمس حين غزانا الصليبيون عام ١٠٩٩ والشعوب الإسلامية مفككة الأوصال، والخلافة العباسيه فى بغداد غافلة عما حلت بها من أخطار، حتى هيأ الله عبقريا استطاع بجهاده المقدس أن يلم الشمل ويرأب الصدع، فتهاوت أمامه معاقل الدخلاء وانحسر ظل المستعمرين.

الفصل الثالث

حملة الملك المظفر قطز

"واإسلاماه" (صرخة) المعركة فى عين جالوت

(من ملك الملوك شرقا وغربا الخان الأعظم - باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم "الملك المظفر" وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصريه وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد التى فتحناها معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطاء، فنحن لانرحم من بكى ولانرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب. فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ولامن مهابتنا مناص فخيولنا سوابق وسهامنا فوارق وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فإنكم أكلتم الحرام وخنتم العهود والإيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمذله والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون). فمن طلب حربنا ندم ومن طلب أماننا سلم فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا بالجواب قبل أن تضرم الحرب نارها).

هذا هو نص التهديد(١) الذى بعث به "هولاكو" قائد جيوش التتار

١- كما رواه المقريزى: السلوك، ج١، ق ٢٢، ص ٤٢٧ - ٤٢٩.

بصحبة أربعة سفراء إلى "قطز" سلطان مصر الملقب بالملك المظفر، وقد تم للتتار الاستيلاء على سورية بأكملها من بعد العراق، ثم اجتاحوا فلسطين ووصلت طليعتهم إلى مدينة غزة. فأمر قطز بإعدام هؤلاء الرسل وتعليقهم على أبواب القاهرة الأربعة وسارع إلى إعلان التعبئة العامة واتخذ كافة الإجراءات التى تكفل له إنجاح حملته التى عزم على تسييرها إلى الأرض المقدسة لتحريرها من الغاصب الدخيل، ثم قام بدعوة الأمراء والمترددين وشرح لهم خطورة الموقف وبعض ما ارتكب التتار من أعمال وحشية يعجز القلم عن وصف بشاعتها فى البلاد التى تخاذل حكامها أمامهم وغدروا ببعضهم بعضا كما أوضح لهم ظلمة المصير إن ثبت التتار أقدامهم فى فلسطين واتخذوها قاعدة لهم يقفزون منها على بقية البلاد العربيه. ولقد بلغ به التأثر حدا جعل الدموع تنهمر من عينيه وهو حثهم على بذل أرواحهم فى سبيل نصرة الدين وحماية الديار. فضج الأمراء من شدة التأثر وأجهشوا بالبكاء وأقسموا أن يصدقوا الجهاد المقدس.

وهو الذى أدرك بثاقب بصره أن حكام المدن الإسلامية والعربية الذين آثروا السلامة الاكتفاء بالدفاع دون الهجوم والمكوث وراء الأسوار قد أوقعوا أنفسهم فى فخ لانجاة منه.

التقدم للتماس

تحركت القوات الرئيسية للحملة بقيادة "قطز" من قلعة الجبل يوم الإثنين الموافق ١٥ من شعبان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) ومرت بالصالحية حيث سبقتها قوات خفيفة بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس لمتابعة العدو والاشتباك معه فى غزة واختبار قوته فوقعت معركة خاطفة بين هذه

السرية والتتار وأجبرتهم على الانسحاب فاحتل بيبرس غزة ثم استأنف عملية "التقدم للتماس" وأخذ يتتبع التتار إلى أن لحق بهم قرب قرية عين جالوت فى الجنوب الغربى من بيسان حيث يمر نهر الجالود وتقع بالقرب منها مستعمرة "عين حارود" الإسرائيلية الآن. جرت مناوشات مبدئية بين الطليعتين واندخر التتار قليلا قبل أن تتلاحق بهم قواتهم الرئيسية القادمة من دمشق بقيادة كيتبغا الذى عينه هولاكو محله قبل أن يعود مضطرا إلى بلاده.

أما القوات الرئيسية للحملة فإنها واصلت زحفها بمحاذاة الساحل مارة بيافا وقيصرية حتى عكا التى مازالت فى أيدى الفرنج فتعاقدوا مع السلطان على الحياد ثم غيرت الحملة محور تقدمها نحو الجنوب الشرقى لتلحق بقواتها الخفيفة.

نظام معركة الجانبين

أسس الجيش العربى بعد وصوله إلى جبل الكرمل قاعدة قوية له شرقى مرج ابن عامر مرتكزا بميمنته على مستنقعات وأطيان تعيق اندفاع التتار، وتشكل فى وجههم مانعا طبيعيا لابأس به. كما ارتكز بميسرته على رجال المشاة المسنودين بفرسان البادية وغيرهم بقيادة بيبرس، واشتملت قوات القلب على عناصر جيدة التدريب من الخيالة. وكان السلطان يقصد بذلك أن تكون المعركة ثابتة غير متحركة لمفاجأة التتار الذين تعودوا على ما يدعى الآن بالحرب المتحركة التى تعتمد على خفة الحركة والقتال الخاطف على جبهة واسعة والانقضاض المركز على مواطن الضعف المكتشفة. وقد مارسوا هذه العمليات سنين عدة، فأتقنوا أصولها بما لديهم من وسائل سريعة، واشتهروا بها ولا سيما أنهم لم يخسروا أية معركة فى السابق فدانت لهم جميع البلاد الواقعة بين الصين وفلسطين.

تحشدت قوات التتار المقدرة بأربعمائة ألف فارس مرتفقات من اختيارها شمال شرق بيسان فاستفادت من طبيعة الأرض وركزت رماة السهام مقابل عناصر المشاة العربية ووضعت خلف الرماة القسم الأكبر من الخيالة الخفيفة الحركة على أهبة الاستعداد لاستثمار ما يلوح لها من فوز.

خطة الجيش العربى

درس قطز بعناية أساليب وخطط المغول الهجومية، وقد رأى أن المغول يعتمدون على القتال المتحرك مستفيدين من خفة حركة الخيالة

وهى عماد جيشهم وقتالهم، وقرر أن تتخذ المعركة شكل القتال الثابت، لذلك قرر أن يتخذ موضع الدفاع وأن تتميز المعركة بالقتال القريب والاشتباك بالسيوف والرماح، وبذلك يستطيع الاستفادة من عنصر المشاة الذى كان العنصر الرئيسى فى جيشه.

انتخب قطز موضعه الدفاعى فى المنطقة المحصورة بين نهرى الجالوت وجلبو مستفيدا من طبيعة الأرض فى هذه المنطقة التى كانت تتميز بما يلى:

١- الأرض منبسطة وواسعة ذات قابلية على استيعاب قطعات كبيرة.

٢- وجود مستنقعات بيسان فى جناحه الأيمن تحدد حركة الخيالة المغولية، وبذلك تضطر إلى الهجوم من الجبهة حيث لا تستطيع الالتفاف من هذا الجناح.

٣- كثرة الموانع والأنهار تحدد عمل الخيالة التى يتفوق بها المغول فتقل أهميتها.

٤- فى حالة اضطراره إلى الانسحاب يستفيد من نهر جلبو لتأخير مطاردة المغول له.

احتل قطز الموضع الدفاعى كما يلى:

القسم الأكبر بقيادته فى المركز (القلب)، ويتألف من المشاة وقليل من الخيالة.

الميمنة المؤلفة من المشاة وقليل من الخيالة.

الميسرة المؤلفة من المشاة وقليل من الخيالة.

الاحتياط وهو فرق الخيالة الرئيسية بقيادة الأمير بيبرس التى وضعها خلف القلب مباشرة، واجبها مطاردة المغول بعد دحرهم.

وكانت الخطة تقضى بصمود المشاة بوجه خيالة المغول وإجبارهم علــى القتــال القريــب المتلاحــم فتشــل قابليــة حركتهــم، وتتكســر شــدة هجماتهم فتقوم خيالة المصريين بالانقضاض عليهم ومطاردتهم.

وفـى حالـة فشـل هذه الخطـة يطبـق المصريـون خطة المغول نفسها، فيتظاهرون بالانسحاب من المركز فتحدث ثغرة يندفع منها المغول، ثم يطبقـون عليهـم مـن ثـلاث جهـات بعـد تورطهـم بـالتغلغل بعيدا ويتـم القضـاء عليهم.

<u>خطة الجيش المغولى</u>

تعتمد خطة المغول التى برعوا فيها فى جميع حروبهم على تجنب الاشتباك مع الخصم فى البداية، فيقومون بهجمات بسيطة فى محلات مختلفة حتى يكتشفوا نقاط الضعف فى صفوف الخصم ليحشدوا قواهم الرئيسية أمام نقطة الضعف ويشنوا هجومهم الكثيف عليها.

يبـدأ الهجـوم بقصـف كثيـف مـن قبـل حـاملى السـهام فيختـل تـوازن الخصم، ثم يبدأ الهجوم.

وفى معركة عين جالوت قرر القائد المغولى بعد دراسته الموقف، وقيامه بالهجمات المحدودة لكشف نقاط الضعف، القيام بهجوم جبهوى وتحطيم مركز تجمع المسلمين، وقسمها إلى قسمين والنفاذ من الوسط والالتفاف على مؤخرة القسمين المنشطرين.

ولقد وضع خطة بديلة تقضى بالتظاهر بالانسحاب عند فشل هجوم

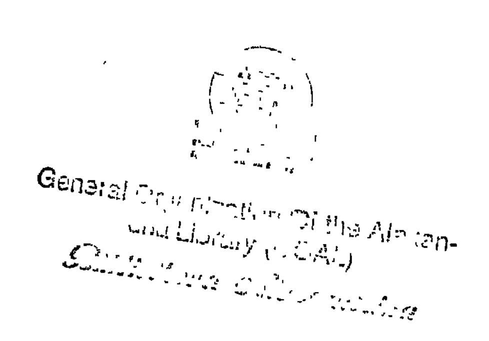
المركز لاستدراج الجيش المصرى وإخراجه من مواضعه الرئيسية، وعندئذ تقوم فرق الخيالة السريعة بالانقضاض عليه وتحطيمه.

مراحل المعركة

فى صباح يوم الجمعة الموافق رمضان عام ٦٥٨ هـ (٦ /٩/ ١٢٦٠م) بدأت سهام التتار تتقذف بغزارة بين صفوف المشاة العربية، وعندما اختل توازنها اندفعت فجأة خيول التتار واصطدمت معها بعنف وفتحت لها ثغرة، وهذا ما قدره السلطان مسبقا حيث أوعز لمشاته أن تتظاهر بالفرار، وهنا انخدع التتار وظنوا أن مرحلة الاختراق قد تمت لهم على خير وجه فاندفعوا يريدون المباشرة بالمرحلة الثانية، وتوغلوا بين عناصر الجيش العربى فبرز السلطان بقوات القلب صائحا بصرخة المعركة التى اشتهر بها "وإسلاماه" فاندفعت معه قوات جناحيه قدمًا، ودحروا التتار إلى التلال القريبة من بيسان فانفلتت من يد التتار زمام المبادأة، ولم تتم لهم مرحلة التوغل، بل تحققت للجيش العربى.

فأطبق بيبرس عليهم بقواته وشدد الخناق، كما توجه الأمير جمال الدين قوس الشمس إلى كتيغا واستطاع أن يقتله ويرفع رأسه فوق رمحه عاليا، فدب الذعر فى جموع التتار وولت بعض قبائلها الأدبار. ولكنهم سرعان ما أعادوا تنظيمهم وجددوا الاشتباك. وعندما حمى وطيس المعركة من جديد برز السلطان يجاهد بنفسه ويجالد الأعداء مرددا صرخة المعركة - وإسلاماه! وإسلاماه! فصدقت قواته الجهاد وفرقوا شمل التتار، ثم تحول بيبرس إلى مرحلة المطاردة وأوعز لقواته بالتقدم لاستثمار الفوز على الفور فلحقوا بفلول التتار وأعادوا

التماس معهم واستمروا فى مطاردتهم حتى أفنوا منهم خلقا كثيرا، ثم غادر الملك المظفر قطز فلسطين بعد أن مرغ وجهه بتربتها المقدسة شكرا لله، وتوجه إلى سوريا حيث قال أحد المؤرخين: « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام لأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه ».



الدروس المستفادة

التوعية ورفع المعنويات

أدرك الجميع الخطر الذى يتهددهم وتبينوا قواهم الكامنة إن توحدت كلمتهم. وكانت العقيدة الإسلامية الحقة هى أساس معنوياتهم العالية. فهم يحاربون عدوا يدعى اعتناق دينهم ولكنه فى الواقع قضى على حاضرة الخلافة وأباد التراث الإسلامى فى بغداد، ثم اجتاح الأرض المقدسة واتخذ منها قاعدة للقفز على مصر لمواصلة السلب والسبى وإزهاق الأرواح وإخضاع البلاد.

التعرض وعدم الاستكانة في دفاع مستمر

لا ينال القائد نصرا بدون عمل إيجابى، ولا شك فى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع. وقد حقق السلطان هذا المبدأ بأن أرسل قسما من جيشه بقيادة بيبرس للتماس بالعدو والاشتباك معه فى قلب قاعدته التى استولى عليها فى الأرض المقدسة. وقد أدى بيبرس هذه المهمة خير أداء. واستطاع أن يجتاح القسم الأكبر من فلسطين ويضم إليه المجاهدين.

الشجاعة والمثابرة

تولى السلطان القيادة العامة للمعركة عن كثب، وأبدى من ضروب الشجاعة ما جعل سائر القادة والجنود يقتدون به، حتى لقد سقطت فرسه تحته وهو يجاهد فى العدو ويجالده. وكلما رأى فتورا صاح بصرخة معركته الشهيرة "واإسلاماه!" فتشتد العزائم. ومن واجب كل قائد أن يكون قدوة لمرءوسيه ونحن نراهم فى الحروب الحديثة يمتطون دبابات القيادة الخاصة بهم على مختلف مستوياتهم ويوجهون

المعركة دقيقة إثر دقيقة. إن القيادة الرديئة تقضى على الشجاعة الفطرية لدى الجندى، الذى يعرض نفسه للموت، فيغفل عن واجبه تجاه وطنه وقومه وأهله. وكم من معركة لاحت فيها الهزيمة ثم تحولت إلى نصر مبين بفضل الشجاعة والمثابرة التى يبديها القائد ويأخذها عنه الجنود.

مطاردة فلول العدو وإبادته عن آخره

على القائد المنتصر إذا أراد المحافظة على منجزاته التى كلفته غاليا أن يبادر فورا إلى مصاردة فلول العدو دون هوادة فلايترك له أية فرصة للتجمع وإعادة التنظيم واستئناف القتال المنظم، وهذا ما فعله بيبرس، فتحقق للجيش العربى نصر حاسم ولحقت بجيوش التتار الهزيمة لأول مرة.

الموقف العام في البلاد العربية والإسلامية قبل الحملة

عندما احتل المغول الصين وبدءوا بالاستعداد لغزو العالم الإسلامى كانت الخلافة العباسية فى بغداد تحتضر، ولم يملك الخليفة العباسى من الإمبراطورية العظمى التى أسسها المسلمون الأوائل سوى بغداد وحدها، أما بقية البلاد، فقسم منها قد انسلخ عن الخلافة والقسم الآخر تقسم إلى دويلات يحكمها المماليك وملوك الطوائف. وكانت هذه الدويلات نفسها ينازع بعضها بعضا.

ففى الشرق كانت الدولة الخوارزمية التى تضم إيران وأفغانستان وتركستان، وكانت هذه الدولة فى نزاع مستمر مع جيرانها المسلمين، فأضعفتهم وضعفت هى الأخرى من كثرة الحروب والاضطرابات.

وفى بغداد كان الخليفة العباسى الناصر لدين الله ومن بعده

المستعصم بالله أضعف من أن يعيدوا للخلافة هيبتها ويوحدا الأمة التي باتت تنطق بالعربية من المحيط الأطلسى إلى حدود الصين.

وكانت سورية تحكمها بقايا أسرة صلاح الدين الأيوبى بينما الفرع الآخر من الأسرة يحتضر فى مصر نتيجة سيطرة المماليك على الحكم فيها.

وأما شمال أفريقيا والأندلس فقد تفتتت هى الأخرى إلى دويلات وإمارات ضعيفة، وكذلك الحال فى جنوب الجزيرة العربية.

الحملة غيرت وجه التاريخ

من خلال هذا العرض الموجز لمعركة عين جالوت يمكن القول إن هذا النصر العظيم الذى حققه المسلمون فى عهد المماليك فى عين جالوت، وما أعقبه من طرد المغول نهائيا من بلاد الشام، يعدُّ بحق من الأحداث الحاسمة فى تاريخ مصر والشام وفى تاريخ الأمم الإسلامية وفى تاريخ العالم بأسره، إذ إن ذلك الانتصار لم ينقذ العالم الإسلامى وحده، بل أنقذ العالم الأوروبى والمدنية الأوروبية من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا وقتئذ قبلٌ بدفعه، فلو تم للمغول اكتساح الأراضى المصرية، والنفاذ إلى شمال أفريقيا حيث الصحراء الكبرى التى هى الطريق التقليدى المعروف لدى الغزاة والفاتحين الذين قاموا بغزو أوروبا من الجنوب فى العصور المختلفة، لتمكنوا من سلوكه إلى أوروبا عبر جزيرة صقلية وجبل طارق.

كما يمكن القول أيضا إن هذه المعركة تفوق فى أهميتها المعارك الحربية الحاسمة فى العصور الحديثة، لأنها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة تحكمها القوانين والقواعد والأعراف، بل كان أحد

طرفيها وهم المغول عبارة عن شعب بدائى بربرى متوحش سفاك للدماء مخرب لكل معالم الحضارة، ومن هذا المنطلق نستطيع ان نؤكد بأن موقعة عين جالوت فى تركت فى تاريخ البشرية أثرا أشد وقعا وأقسى تأثيرا مما تركته معركتا المارن فى الحرب العالمية الأولى والعلمين فى الحرب العالمية الثانية.

وإذا ما قصر ذلك على العالم الإسلامى فإن انتصار المماليك فى هذه المعركة كان بمثابة السد المنيع الذى حال دون تقدم المغول على بقية العالم الإسلامى، وقضى المماليك بذلك على خرافة الجيش المغولى الذى لا يقهر التى كانت تردد فى الأوساط السياسية والعسكرية آنذاك. كما أن هذا الانتصار العظيم بعث روحا جديدة فى المسلمين لاسيما مسلمى فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية، وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين وينافسونهم تبوء مركز الصدارة فى دولة المغول فى فارس وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامى حتى كللت مساعيهم بنجاح باهر أثمر اعتناق المغول فى غرب آسيا للدين الإسلامى.

وثمة أهمية أخرى هى أن انتصار المماليك فى هذه المعركة قضى على المعارضة الأيوبية لهم فى بلاد الشام، وحصل المماليك بموجبه على ما كان ينقصهم من نصر سياسى لابد منه لتثبيت أركان دولتهم، ولم يعد المسلمون يذكرون عنهم سوى شىء واحد هو أنهم أنقذوا العالم الإسلامى من خطر الغزو المغولى المدمر، وأن بقاءهم فى الحكم بات ضرورة لابد منها، وذلك للمحافظة على كيان المسلمين. وقد توج المماليك تلك الثقة بإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة

٦٥٩هـ لتكتسب بذلك دولتهم صفة الشرعية الكاملة.

كما أن انتصار المماليك فى عين جالوت كان له دور كبير فى إضعاف بقايا الإمارات الصليبية على ساحل بلاد الشام ، فالذى لا شك فيه أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم الذى حققه المسلمون ضد المغول فى هذه المعركة.

ومن الناحيه الحضارية، فقد جنبت مصر بعد هذا النصر ويلات الغزو المغولى المدمر واحتفظت بما لها من مكانة حضارية ومدنية، ولم تتعرض لما تعرضت له بغداد ودمشق وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والدمار الذى عطل ما كانت تزخر به المدن الإسلامية من العلوم والآداب والفنون والمعالم الحضارية، وبقيت القاهرة مكانا هادئا أمنا يدعى إليه العلماء والأدباء وغيرهم، واكتسبت بذلك عاصمة الدولة المملوكية مكانة ممتازة من الناحية الأدبية والعالمية إلى جانب مكانتها السياسية التى برهنت عما اكتسبه المماليك المسلمون من هيبة ومقدرة فى شئون السياسة والحرب، اتضحت فى علاقاتهم الخارجية الدولية الواسعة الانتشار، وفى إصلاحاتهم وإدارتهم الداخلية الحازمة.

وختاما يمكن القول إنه بفضل انتصار المسلمين فى معركة عين جالوت، أصبحت سلطنة المماليك المسلمين فى بلاد الشام ومصر أقوى دولة فى الشرق الأدنى لمدة تزيد على قرنين من الزمان بعد أن كانت مهددة بالزوال وهى فى مهدها. إذ إن هذا الانتصار بدد أحلام المغول فى السيطرة على بلاد الشام ومصر، وتحقيق حلمهم بتكوين إمبراطورية مغولية عالمية، كما عجل فى الوقت نفسه بزوال ما تبقى

من الإمارات الصليبية فى المشرق الإسلامى، إذ تمكن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس من القضاء على إمارة أنطاكية الصليبية سنة ٦٦٦هـ، وثنى السلطان المنصور سيف قلاوون بإمارة طرابلس فى سنة ٦٨٨هـ وثلث ابنه الأشرف خليل بالاستيلاء على مدينة عكا آخر المعاقل الصليبية فى بلاد الشام وذلك فى سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١م.

الفصل الرابع

حملة نابليون

غزا نابليون بونابرت الشواطىء المصرية عام ١٧٩٨، وتمكن من احتلال الوجه البحرى فى الفترة الواقعة بين شهرى تموز وأيلول، ثم وجه كل جهوده نحو تحويل مصر إلى قاعدة قوية يستطيع منها تجهيز جيشه بالإمدادات والمواد اللازمة لسد النقص. غير أنه قبل إنجاز هذه المهمة، أدرك أن هدفه السياسى إجبار تركيا على التحالف معه لم يتحقق. فقد كان يأمل أن يؤدى استيلاؤه على مصر، والتظاهر بأنه يساعد تركيا على استعادة نفوذها فى هذه المنطقة، إلى ارتمائها فى المعسكر الفرنسى.

كان السلطان ضعيفا ومترددا بين قبول فروض التحالف الفرنسى أو البريطانى فأرغم على قبول مساعدة بريطانية روسية ضد الغزاة الفرنسيين الذين احتلوا جزءا من إمبراطوريته العثمانية وقد أعلن الحرب المقدسة (الجهاد) وأمر بحشد جيشين على وجه السرعة أحدهما فى رودس والآخر فى بلاد الأناضول وسوريا.

فكا الكماشة

تقرر أن يهبط الجيشان، بعد حشدهما مباشرة إلى أرض مصر فى حركة فكى كماشة لطرد الفرنسيين إلى البحر، وذلك بأن يرسو جيش رودس المنقول بحرا على مراكب بريطانية قرب الأسكندرية، وأن يهاجم جيش سوريا الأراضى المصرية برا عن طريق فلسطين وسيناء. وقد أوعز إلى أحمد الجزار باشا عكا أن يدعم تحركات الجيشين حتى التقائهما فى الدلتا، وذلك بتجميع ما يتيسر لديه من

القوات التركية، وتعزيزهم بالمجندين العرب، ثم سوقهم باتجاه مصر والتحرش بجيش نابليون.

وعندما علم نابليون بالتحركات التركية المبيتة صمم، كما هى عادته ، على أن يهاجم أعداءه ويقهرهم فى عقر دارهم وهم مازالوا متفرقين. واتخذ قرارا بغزو فلسطين للسعى وراء جيوش بلاد الشام ومنازلتها فى حملة قصيرة وسريعة ثم العودة إلى مصر فى الوقت المناسب، لمواجهة الغزو المنتظر من رودس وقد عزم على احتلال فلسطين إلى جانب مصر.

ولماذا فلسطين؟ ألم تكن مصر عبئا ثقيلا؟ ولكنه أدرك وضعيته المكشوفة وشعر أن استيلاءه على فلسطين يمكنه من:

- إنشاء حاجز فى وجه الأخطار المقبلة نحو قاعدته المصرية.
- حرمان الأسطول البريطانى من استخدام الموانى الفلسطينية لا سيما بعد أن تمكن من تدمير الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير وسيطر على البحر.
- استمالة العناصر المناوئة فى بلاد الشام.
- تهديد بلاد الأناضول وطرق الخليج العربى تهديدا مباشرا لتحويل أنظار الإنكليز والأتراك عن مصر.

السرعة

لاشك أن السرعة هى العامل الأهم فى تنفيذ خطة نابليون، إذ كان عليه أن يحتل الساحل الفلسطينى ولا سيما مدينة عكا قبل وصول التعزيزات التركية إلى الحاميات المحلية. فتحتم عليه أن يقوم بمهمة

منازلة جيش سوريا قبل أن يتمكن هذا الجيش من ذلك، وقبل أن يشن جيش رودس هجومه.

قسم نابليون مسرح الحرب المقبلة إلى قسمين: صحراء سيناء وساحل فلسطين. وتنبأ بوجود عدوين رئيسيين هما الجوع والعطش، إلى جانب تحرش البدو والمحليين لأجنحته أثناء قطعه مسافة مائتى كيلومتر عبر صحراء سيناء القاحلة. وافترض أنه سيواجه أولى المقاومات العنيفة فى منطقة جنوبى فلسطين، ثم تتلاشى هذه المقاومة تدريجيا كلما تحرك جيشه باتجاه عكا. وافترض أيضا أنه سيأخذ عكا بعد حصار تام لن تبلغ صعوبته حدا مستحيلا.

أسس نابليون سلاح الهجانة يوم ٩/ ١/ ١٧٩٩ لحماية أجنحته من تدخل الأهالى وابتكر أسلوبا جديدا فى رماية البنادق لمواجهة الغزوات المفاجئة التى يشنها المغيرون من سكان البادية. وقد أتاح هذا الأسلوب لصفين من الصفوف الثلاثة المعتادة فى نظام معركة السرية بأن يطلقا النار دفعة واحدة، ثم يكرران هذه الرماية المركزة فور إطلاق النار من قبل الصف الثالث.

ولكن معظم الجهود المبذولة فى الإعداد للخطة كانت منحصرة فى التغلب على الجوع والعطش. فقد جعلت كل فرقة اشتركت بالحملة (أربع مشاة متوسط جنود الواحدة ٢٥٠٠ جندى، وفرقة خامسة من الفرسان) ذاتية الأسناد من الناحية الإدارية، وزودت كل وحدة فرعية ببغالها الخاصة لحمل المؤن والماء والأدوات اللازمة للتنقيب عن المياه ورفعها. وألحق بالوحدة الإدارية التابعة لكل فرقة مستشفى ميدان محمول على الجمال، وصممت لها النقالات بناء على اقتراح نابليون نفسه.

وأخيرا عمل نابليون على إراحة قوات التجريدة من حمل المعدات الثقيلة التى رأى عدم لزومها أثناء اجتياز الصحراء، فأزاح عن كاهل التشكيلات الزاحفة مسئولية تسيير قافلة معدات الحصار الثقيلة، وقد شحن هذه المعدات فى مجموعتين من السفن الفرنسية لنقلها بحرا إلى عكا حيث كان استخدامها متوقعا.

الغزو

أكمل الفرنسيون الاستعدادات فى خمسة أسابيع، وحدد نابليون ميعاد مغادرة قواته من موقع الصالحية يوم ٥/ ٢/ ١٧٩٩ ، وقدر نابليون لطلائعة أن تصل رفح على حدود فلسطين قبل ١٤/ ٢ ، على افتراض أن قطع مسافة ٢٠٠ كم عبر الصحراء يستغرق سبعة أيام.

المخطط

عبر حرس المقدمة إلى صحراء سيناء وعلى رأسه الفريق رينير يوم ٦/ ٢ ثم تبعه بعد مضى أربع ساعات وحدات من فرقة الفريق كليبر، ولم تواجه هذه القوات أية مقاومة تذكر فى اليومين الأولين، فأسرع رينير فى اندفاعه وفات كليير بمراحل ووصل مع غروب يوم ٨/ ٢ إلى ضواحى العريش، وفى صبيحة اليوم التالى واجهت قواته مقاومة عنيفة عندما حاولت الاستيلاء على البلدة، وقد أبدت هذه المقاومة قوة تركية تمركزت فى البلدة نفسها وفى حصن مشرف مربع الشكل ذى أبراج بارزة ظهر فجأة أمام الفرنسيين وكانوا لا يعرفون عنه شيئا ولم يستخبروا عنه أو يحسبوا له أى حساب، وكان رينير مصيبا عندما ارتأى أن أحسن فرص النجاح تكمن فى السرعة.

فأمر قواته باقتحام مواقع أعدائه، ولكن نجاحه لم يكن حاسما وظل

الحصـن فـى أيدى الأتـراك، وتمكنـت حاميـة البلـدة مـن الانسـحاب إلـى داخل الحصن، وقد دفع رينير ثمنا غاليا فى العريش وبلغ عدد قتلاه ٢٠٠ وجرحاه ٣٠٠.

وفى الواقع ذهبت كل هذه الجهود سدى، فلم يكن بالإمكان التأثير علـى جـدران ذلـك الحصـن بـالمدافع الخفيفـة المسـاندة لحـرس المقدمـة، مما أجبر رينير على ضرب حصار عقيم دام سبعة أيام لمحاولة القيام بعمليات النقب أو التلغيم.

وفـى يـوم ١٤/ ٢ أصبـح موقـف رينـير خطـيرا عندمـا سـمع عـن اقتراب ٢٥٠٠ فـارس تركـى كـان قصدهـم علـى الأغلـب فـك الحصـار عن الحصن، ولحسن حظه وصلت القوة الرئيسية لفرقة كليبر فى نفس اليـوم وقـد شـنت القـوى الفرنسـية المختلطـة هجومـا مفاجئـا فـى الليلـة التاليـة وصعقـت قـوة الإنقـاذ التركيـة وطـاردت فولهـا إلـى الشـمال والشرق، ولكن لم يتحقق إلا القليل فى سبيل قهر الحصن لأن مدفعية فرقـة كليـبر كـانت خفيفـة هـى الأخـرى فظلـت جـدران الحصـن علـى حالها.

خيبة الأمل

وصـل نـابليون إلـى العريـش يـوم ٢/١٧ وكـان قلقـا لفشـل رينـير فـى الوصـول إلـى حـدود فلسـطين قبـل ذلـك التـاريخ. فبذلـت جهـود كـادت تخـرج عـن طاقـة البشـر، وجلبـت قطـع المدفعيـة المتوسـطة فـى غضـون ٤٨ ساعة من الخلف وركزت فى مواقع الرماية مقابل الحصن، ولكن أصيـب الفرنسـيون بخيبـة أمـل كبـيرة عندمـا اتضـح لهـم أن عيـار ١٢ رطلا لا يخترق هو الآخر التحصينات التركية، ولم تكن هناك وسيلة

للتغلب على الحصن بسرعة نظرا لوجود معدات الحصار الثقيلة فوق السفن المتجهة نحو عكا كما أنه لم يكن بالمستطاع ترك الحصن على حاله لأنه يعترض خط المواصلات الوحيد مع القواعد الفرنسية فى مصر، وفى هذه اللحظة الحرجة ضم آمر المدفعية الفريق دومارتين بطاريات هاون الفرق إلى مدافع الهاوزر القليلة التى بإمرته وحشدها لتركيز سد نارى قوى على أمل إصابة القسم الأكبر من حامية الحصن البالغ عددها ١٠٠٠ جندى، والتى عسكرت فى الساحة المكشوفة، فقد أدرك عدم استطاعتها أن تحشر نفسها فى الملاجىء الصغيرة المهيأة ضمن الجدران، وقد تحققت فكرة دومارتين، وأخيرا طلبت الحامية التركية التسليم، وقد دام الحصار مدة أحد عشر يوما، ولم تصل القوى الفرنسية رفح إلا بتاريخ ٢٣/ ٢.

مجزرة يافا

غزا نابليون فلسطين فى حملته البرية المشهورة مرتكزا على قاعدته فى مصر، وعندما أشرف بقواته الرئيسية على يافا يوم ٧/ ٣/ ١٧٩٩ وقف بجيشه على بعد ثلاثة أميال من أسوار المدينة لوضع الخطط، فقسم الجيش إلى ثلاث فرق، قامت اثنتان بعملية الحصار وتمركزت الثالثة إلى الشمال على طريق عكا، وكان جنود حامية يافا ثمانية آلاف جندى من المرتزقة العرب والأتراك وغيرهم داخل سور ضخم تعلوه الأبراج الحصينة، ففضل الفرنسيون أن يرسلوا إلى حاكم المدينة خطابا ينصحونه بالتسليم ويمنونه بالأمان غير أنه قبض على حامله وقتله فأغاظ ذلك نابليون وأصدر أوامره بإطلاق نيران المدافع، وكلف الجنرال كليبر بمهمة الاقتحام، وأوعز إلى قائد آخر بالإشراف على عملية فتح ثغرة فى السور، وفى هذه الآونة انتشر الرماة

الفرنسيون فى "البيارات" وقد استطاع جند من المغاربة العرب أن يتسللوا نحو هؤلاء الرماة وينقضوا عليهم وهم خلف مدافعهم بجوار المقبرة فأبادوا كثيرا منهم دون أن يصابوا هم بأية خسائر، وبدأت الحامية تصب نيران مدافعها، واستمر القتال إلى أن حل الظلام.

وفى الساعة الرابعة من صبيحة اليوم التالى تمكنت المدفعية الفرنسية من فتح ثغرة فى السور تجاه "حارة النصارى" واقتحم الغزاة المدينة ليلة عيد رمضان سنة ١٢١٣ هجرية، واستمروا فى قتل الجنود المستسلمين والأهالى المسالمين واعتدوا على النساء ونهبوا ما استطاعوا طيلة هذه الليلة، وظل نابليون مكانه متوسدا أحد المدافع، ولم يأمر جنوده بالكف عن هذه الاعمال البربرية إلا فى الصباح فجاءوا إليه بأربعة آلاف أسير من جنود الحامية، وبدت عليه الحيرة عندما وجد هذا العدد الكبير، لأنه لم يرد أن يشاركوه أرزاقه التى نهب معظمها.

وبعد مرور ثلاثة أيام من التفكير أمر من يرميهم بالرصاص أو يطعنهم بالحراب فى حالة عدم توافر الذخيرة، ففشت الأوبئة وسرت العدوى إلى الفرنسيين أنفسهم واضطروا إلى قتل مصابيهم حماية للآخرين، وقد ألحقت هذه الفعلة العار والشنار بسمعة نابليون.

جبل نابلس يثور على الفرنسيين

علم الجنرال كليبر وهو معسكر بفرقته على نهر العوجا أثناء وضع الخطط لفتح يافا؛ أن جموع الأهالى أخذت تحتشد فى نابلس، وارتأى أن يرسل إليهم مناشير باللغة العربية لحملهم على الانضواء تحت الراية الفرنسية بدلا من العثمانية، فكلف ضابطا مع مفرزة بهذه

المهمة، وعندما أصبح فى وادى عزون الضيق انهمر عليه الرصاص من حيث لا يحتسب واضطر إلى التقهقر وقد أصابه جرح بليغ عندما ارتطم بصندوق حمله على فرسه ثم أرسل كليبر كتيبتين من فرقته إحداهما إلى قرية صرتا شرقى محطة رأس العين والأخرى إلى قرية مسكه قرب طيرة بنى صعب، ولكنهما لم تستطيعا سوى رد النجدات التى أرسلها الجبل إلى السهل٠

وبعد أن تم لنابليون فتح يافا أرسل إلى قوات كليبر قوة أخرى، واتجهت جميعها صباح يوم ٢٤ / ٣ إلى قاقون شمال غرب طولكرم ونازلت هناك جنودا غير نظاميين ودحرتهم حتى قرية زيتا. وفى ظهر ذلك اليوم نشبت معركة عنيفة بين الطرفين وتظاهر النابلسيون بالهرب أمام العدو فانخدع وطاردهم حتى توغل فى منطقة وعرة، وهناك كمنوا له وأوقعوا به خسائر فادحة ثم اختفوا فى أعالى الجبال.

وعندما توجه نابليون إلى جبل الكرمل وجعل مقر القيادة على قمته وأشرف على السهول المترامية الأطراف واستسلمت له حيفا صلحا وانتصر على القوات العثمانية فى معركة جبل طابور قرب الناصرة، واستولى على صفد وطبرية تجمع ثمانية آلاف من النابلسيين ومعهم نجدات من جبل الخليل والقدس، واقتربوا منه فنازلوه فى المرج ثم اعتصموا بالجبال مرة أخرى٠

وقد أرسل نابليون كتيبة إلى جنين لحرقها ونهبها مع بعض القرى بحجة عدم الاستسلام ثم سحبها إلى الناصرة دون أن يتحقق له إخضاع هذا الجبل الأشم، مما عرض جناحه الأيمن للخطر الدائم أثناء فرض حصاره الطويل على عكا، فضعفت روح جنوده المعنوية

وذهبت قواهم واضطر فى النهاية إلى رفع الحصار والجلاء عن فلسطين بأكملها يوم ٢٠/ ٥/ يجر وراءه أذيال الخيبة.

تدخل البريطانيين

علم قائد العمارة البريطانية فى شرقى البحر الأبيض الأميرال سدنى سميث أن باشا عكا لا يستطيع مقاومة الفرنسيين مدة طويلة فوصل فى الوقت المناسب يوم ١٥/ ٣ على ظهر السفينة "النصر" وأنزل العقيد فيليبو ليشرف على الاستعدادات الدفاعية، ومما يجدر ذكره أن فيليبو هذا من أصل فرنسى وكان أحد زملاء نابليون فى الكلية الحربية بباريس.

ثم تجند فى البحرية البريطانية، وقد تضافرت الجهود لجعل مدينة عكا فى حالة دفاعية جيده تكفى على الأقل لصد أول اقتحام فرنسى عام، وأصبح بداخلها ٢٥٠ مدفعا من عيارات مختلفة وألف ومائتا قنبلة زنة ٤٨ أوقية بالإضافة إلى أربعة آلاف قذيفة مختلفة كانوا يسمونها قلة.

وكان الجند خليطا من الأتراك والمغاربة والأرناوط والأهالى العرب، وشكلت هذه القوات فرقتين، إحداهما فرقة المماليك بقيادة إبراهيم باشا، زعيم المماليك الملتجىء إلى أحمد الجزار، والأخرى فرقة المرتزقة والعرب، بقيادة عبدالله باشا حاكم دمشق، كما طلب أحمد الجزار من الأمير بشير الشهابى أن يمنع الدروز من مقاتلته ومن تقديم المساعدة للفرنسيين. شن الفرنسيون هجومهم على المدينة يوم ٢٤/ ٣ أى بعد تسعة أيام من وصول سدنى وخمسة أيام من بدء الحصار الفرنسى.

وبعملية حسابية بسيطة يتضح أنه لو وصل الجيش الفرنسى إلى عكا قبل أربعة أيام لاستطاع احتلال المدينة بسهولة.

الإخفاق

إن ضياع أحد عشر يوما قبل احتلال العريش فوت على جيش "المشرق" الفرنسى فرصة الوصول إلى عكا قبل الأسطول الإنكليزى، وقد اضطر نابليون إلى أن يخصص عدة أيام للاستراحة وإعادة التنظيم، فلم يصل جيشه إلى أبواب عكا إلا يوم ١٩/ ٣، وكان من نتيجة هذا الإخفاق فى التسابق أن اضطر الفرنسيون إلى فرض حصار واسع النطاق حول المدينة، واستطاع المدافعون أن يصدوهم مدة ٤٠ يوما بفضل وقوع المجموعة الأولى من معدات الحصار فى يد الأسطول البريطانى، ووصول التعزيزات من الأناضول عن طريق البحر.

وقبل حلول يوم ٧/ ٥ أى عندما وصلت بقية مدفعية الحصار الثقيلة بطريق البر من يافا أيقن نابليون أن فرصته الأخيرة فى إخضاع عكا قد ضاعت إلى الأبد، ولم يعد باستطاعة قواته أن تتغلب على التعزيزات التركية الجديدة المسلحة تسليحا جيدا ولا سيما أن الجنود الفرنسيين قد وهنت قواهم وضعفت روحهم المعنوية وسيفوقهم الأتراك عددا وعدة عما قريب.

لم يجد نابليون أمامه سوى حل واحد سليم فرفع الحصار يوم ٢٠/ ٥ وأسرع عائدا إلى مصر يجر وراءه أذيال الخيبة بعد أن قذف بقبعته من فوق السور علها تدخل عكا على الأقل وهو يقول مشيرا

إلـى أحمـد الجـزار "لـولا هـذا المملـوك البشـناقى لغـيرت وجـه العـالم"، وبذلـك أدى إخفـاق الحصـار الـذى ضربـه حـول عكـا إلـى فشـل الحملـة بكاملهـا ورجوعـه إلـى فرنسـا فـى يـوم ٩/ ١٠/ ١٧٩٩ ثـم جـلاء قواتـه عن مصر فى ١٨٠١م.

الفصل الخامس

من حملات الأرض المقدسة: حملة إبراهيم باشا

خطة فتح الشام

إن خطة الغزو عبر صحراء سيناء بقيادة إبراهيم باشا ورئاسة سليمان باشا الفرنساوى متفقة إلى حد بعيد مع خطة نابليون، والفارق الوحيد أنه لم تكن للأخير السيادة البحرية التامة فى شرق البحر المتوسط نظرا لسيطرة قطع الأسطول الإنكليزى عليه حنيذاك، وعدم تيسر حرية العمل، غير أن إبراهيم باشا استطاع أن يعتمد على قواته البحرية والبرية وينسق عملياتهما فى تعاون تام على غرار ما فعل الفراعنة من قبله، أمثال تحوتمس ورمسيس، إذ لم ينقطع الاتصال البحرى طوال مدة الحملة التى قسمت إلى قسمين، أحدهما اتخذ طريق البحر من الأسكندرية ووجهته يافا وقاعدته ثغر العريش، والآخر اتخذ طريق البر، ولقد كان تعداد الجيش النظامى المصرى حوالى سبعين ألفا آنذاك، أما القوات التى خصصت للحملة فكانت تتألف من: خمس وحدات مشاة (١) وأربع وحدات خيالة (٢) ومجموعة مدفعية تحتوى على أربعين مدفع ميدان وعشرين مدفع حصار وعشرة مدافع هاون، بالإضافة إلى ٤٠٠ جندى من المهندسين و١٤٠٠ فارس من البدو، وقد بلغ تعداد الحملة ٢٥ ألفا زيدت فيما بعد بمجندين فلسطينيين وسوريين، كما كان الأسطول المصرى مؤلفا من ٢٣ سفينة حربية

١- آلاى رقم ٨، ١٠، ١٢، ١٣ + آلاى الحرس.

٢- آلاى ٣، ٥، ٦، ٧ وهى الآيات مدرعة ورماحة.

مختلفة بقيادة أمير البحر عثمان نور الدين باشا.

سير الحملة برا

حدد ميعاد حركة القوات البرية فى بداية عام ١٨٣١ بيد أنه تأجل هذا الميعاد من جراء انتشار وباء الكوليرا فى مصر، حيث قضى على حوالى خمسة آلاف من الجند، وبتاريخ ١٨٣١/١٠/٢٩ تحركت طلائع الحملة من معسكر الخانقاه بقيادة أمير اللواء إبراهيم يكن فمر بموقع بلبيس والصالحية وقاطية وبئر العبد والعريش، وبعد أن أراح قواته لمدة يوم استأنف التقدم عبر خان يونس فوصل إلى غزة واحتلها دون أن يلقى مقاومة تذكر لأن قلعتها ظلت مهدمة منذ زمن الفرنسيين، ثم توجه نحو يافا ليضم قواته إلى الوحدات القادمة عن طريق البحر بقيادة إبراهيم باشا نفسه، فلما رست قطع الأسطول مقابل البلدة خرج وجهاؤها وعرضوا التسليم، وكانت حاميتها لاتزيد عن ٢٥٠ جنديا فنزلت سرية لستلمهم واستولت على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧ مدفعا بذخائرها، ولهذه البلدة موقع أهم من موقع غزة لقربها من البحر، وثغرها يسمح برسو السفن، وكان للمدينة سور وأبراج منيعة، وقد أرسل إبراهيم باشا كتيبة إلى القدس فاحتلها، ووضع حامية فيها ثم أصدر بعد فترة من الزمن منشوره الشهير الذى أعلنه على أهالى لبنان وفلسطين وهذا نصه:

"إنه ليس خافيكم أن القدس الشريف محتو على معابد وأديرة ترد لأجل زيارتها جميع الأملال وفرقهم من كل فج ويقصدونها من سائر الأقطار والديار، فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الأغفار الموضوعة بالطرقات، ولأجل إجراء الوفق بين الناس صدرت أوامرنا إلى جميع المسلمين الذين فى إيالة ألوية صيدا وألوية القدس الشريف ونابلس وجنين برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم.

حصار عكا - المرحلة الأولى

كانت عكا محصنة بأسوار متينة ذات أبراج منيعة في الشرق والشمال، أما من جهة البحر فكانت الأسوار أقل متانة ولكن المياه المجاورة لها ضحلة لا تسمح باقتراب السفن الكبيرة، وكانت جميع الحصون في حالة جيدة، وقد عملت رئاسة أركان الجيش المصرى لها مخططا مفصلا إبان الخطة. وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل تساندهم مدفعية قوية ولديهم كميات وفيرة من التموين والذخيرة تكفى لحصار طويل الأمد، وبالاختصار كانت استحكامات عكا غاية فى المنعة بفضل الإصلاحات التى شملتها عقب انسحاب الفرنسيين.

وقد قيل إن إبراهيم باشا عندما اقترب من عكا أرسل إلى والى المدينة عبدالله الجزار قبل أن يبدأ الهجوم يحثه على أن يسمح للنساء والأطفال جميعا بأن يغادروا المدينة، ولكن الوالى لم يكترث به فاستهل إبراهيم باشا محاصرة المدينة من البر والبحر يوم ٢٦/ ١١/ ١٨٣١ فتصدت له الحامية واستبسلت فى الدفاع، وقد ظل العكاويون متشبعين بروح القتال ولم يفتر حماسهم حتى النهاية، واستطاعت بعض مفارز الحامية فى عدة أبراج أن تحقق انتصارات محلية على قوات إبراهيم باشا، مما حدا به أن يطلق نيران مدفعيته أياما متوالية دون جدوى، وفى هذه الأثناء أرسل محمد على باشا مهندسا قديرا تولى الإشراف على أعمال الحصار فأمكن فتح ثغرتين فى الجهة الشرقية من السور، وأمطرت المدينة بوابل من القنابل والرصاص برا وبحرا فخربت المدينة، وأصيب الكثيرون من رجالها، ومع ذلك استمرت الحامية فى صمودها على الرغم من تهدم ثلاث ثغرات

أخرى، وأتلفت عدة سفن، وسيطرت على الموقف ثلاثة أشهر كاملة.

التوغل فى سوريا

لم يضع إبراهيم باشا وقته عبثا فأرسل بعض وحداته إلى الشمال واستطاعت أن تستولى على صور، وصيدا، وبيروت، وطرابلس بقيادة حسن المناسترلى، وهنا وضح أمام السلطان محمود فى إستنابول فوز إبراهيم باشا العسكرى وتقدمه الخاطف، ووقوع ثغور بلاد الشام واحدا تلو الآخر، وهى مفاتيح ينفذ منها الفاتح إلى داخل البلاد فيهدد إمبراطوريته العثمانية. وكان هذا السلطان قد أعد جيشا نظاميا قوامه عشرون ألفا كنواة لقوات مسلحة حديثة بعد القضاء على القوات الإنكشارية فى مذبحة فظيعة (١٦/ ٦/ ١٨٢٦) وعندما شعر بوطأة ضربات محمد على باشا أصدر أوامره إلى القائد حسين باشا بعد أن رقاه إلى رتبة المشير (عسكر) بأن ينظم جيشا آخر فى الأناضول، كما عين عثمان باشا حاكما على طرابلس إذا أعادها من يد محمد على، وقد نجح عثمان باشا وهو فى طريقه نحو اللاذقية باتجاه طرابلس فى أن يؤلب السكان ضد محمد على.

هاجم عثمان باشا حامية طرابلس المصرية، ونجح في بداية المعركة، ولكن الحامية المصرية عادت واستطاعت بقيادة مصطفى بربر ومساندة ٤٠٠ محارب من الدروز بقيادة خليل الشهابي أن ترد المهاجمين على أعقابهم وتنزل بهم هزيمة منكرة.

وصلت أخبار معركة طرابلس إلى أسماع إبراهيم باشا فعين أحد قادته مكانه وتوجه ببعض قواته يوم ٢٩/ ٣/ ١٨٣٢ إلى طرابلس ثم التحم مع قوات عثمان باشا في معركة الزراعة جنوبي حمص وهزم الجيش التركي وأجبره على الارتداد إلى حماة، وهنا قرر الاحتفاظ بموقع بعلبك والسيطرة على ما حولها من مواقع أمامية ليحول دون وصول الإمدادات إلى الأتراك ويمنع قدوم أية قوة لمعاونة عبدالله الجزار وفك الحصار عنه.

التحول إلى عكا

استطاع القائد العام إبراهيم باشا ورئيس الأركان سليمان باشا الفرنساوى أن ينظما المواقع الجديدة ويوزعا القوات المتيسرة لهما على المناطق المفتوحة شمالي عكا، وعندما اطمأن إبراهيم باشا إلى الوضع عاد إلى عكا في ٢٦/ ٥/ ١٨٣٢ وعقد اجتماعا لكبار ضباطه وأصدر الأوامر التالية:

أمير اللواء أحمد المنكلي يتوجه بلوائه ومعه الكتائب: الأولى من الوحدة الثانية المشاة للهجوم على برج (قبو برجي - قلعة الباب - الباب)، والكتيبة الثانية المشاه تهاجم الثغرة المقابلة للنبي صالح.

الكتيبة الثالثة بقيادة عمر بك تهاجم الثغرة المعروفة بالزاوية.

تعين قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الوحدة الثانية) تحت الثغرة

الأولى لمساعدة أى قوة تكون سباقة فى اقتحام السور.

كما صدرت أوامر أخرى إلى كتيبة من الوحدة العاشرة للوقوف تحت الثغرة الثالثة، وإلى كتيبة أخرى لنقل السلالم الساعة ١ إلى الخندق الواقع بجانب "قبو- برجى" والتمركز هناك، كما زود القائد العام كل قائد ميدان بالتعليمات المتعلقة به.

واشتغل المهندسون العسكريون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع فأتموا معظم هذه الأعمال فى ساعات الظلام، بينما كانت نيران المدفعية موجهة باستمرار على نقاط المقاومة فى المدينة.

وفى صبيحة يوم ٢٧/ ٥/ ١٨٣٢ عقب شروق الشمس صدر أمر القائد العام بالهجوم من كافة النواحى فى محاولة مستميتة لاقتحام الأسوار، وكان يشرف بنفسه على الأماكن التى يحمى فيها وطيس القتال، ويحث ضباطه وجنوده، ويعاقب المرتد منهم بالموت.

وقد طالت المعركة واشتد سعيرها، ولما آذنت الشمس بالمغيب حمل إبراهيم باشا بقواته على المدينة حملته الأخيرة، وأبدى المدافعون عنادا شديدًا فى بادئ الأمر، ولكنه أخذ يقل عما أبدوه فى أول النهار.

بيد أن شجاعتهم لم تحل دون سقوط المدينة والليل قد أرخى سدوله على أسوارها وأبراجها الخاوية.

جاء أعيان عكا إلى إبراهيم باشا يلتمسون الرحمة، فرأى فيهم أعداء يفخر بمحاربتهم ولم يسعه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم،

وأموالهم، وبلغ منه أنه سمح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم، أما عبدالله نفسه فلم يعده بأكثر من تأمينه على حياته ولكنه تلقاه بما هو خليق بمقامه كوزير من وزراء الدولة، ولما طلب إليه أن يأتيه بأموال الدولة عملا بشروط التسليم أجابه عبدالله الجزار:

لقد كان لى أسوار وجنود وأموال أدافع بها عن عكا، أما الأسوار فقد دكت وأما الرجال فقد كان معى منهم ثلاثة آلاف هلك منهم ألفان وستمائة، وأما الأموال فلم يبق منها إلا جواهر قليلة.

فقال إبراهيم باشا:

إنى لا ألومك على مقاومتك إياى لأننا صنوان، ولكنك قد عدوت طورك إذ أردت أن تقف فى وجه محمد على".

فاجابه على الفور:

"إن إرادة الله هى التى أوقعتنى فى يديك، والخطأ الذى وقعت فيه هو أننى بالغت فى الاعتماد على السلطان، لكن حظ السلطان من الشرف ليس أكثر من حظ النساء، ولو أنى عرفت خلقه لاختطت لنفسى خطة أخرى، ولو فعلت لما كنت الآن أسيرا بين يديك.

وكان طبيعيا أن يعمل الجند النهب فى عكا مثلما يفعل أمثالهم فى الشرق والغرب قديما وحديثا رغم الأوامر التى تنهاهم عن ذلك، وبالفعل انطلق الجنود من عقالهم وتوغلوا فى الأحياء المهدمة بيد أن النظام لم يلبث أن أعيد فى صباح اليوم التالى كما أعيدت بعض الأسلاب إلى الأهالى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشئون الإدارية

لابد لهذه الحملة الكبيرة أن تتخذ ترتيبات إدارية منظمة، ففضلا عما كان يحمله الجندى المصرى من أرزاق الميدان كان البقسماط يرسل باستمرار على سفن من مصر إلى ثغور بلاد الشام، وقد أنشئت المستودعات فى المدن والموانىء لتخزين كميات وفيرة من الأرزاق الجافة والعلف، والذخائر وأملاح البارود والخرطوش والأكياس والقذائف الحجرية، وغير ذلك من المعدات واللوازم المطلوبة فى ذلك العصر، وكان يرسل بانتظام كشوف عن الموجود فى هذه المستودعات كلما امتدت خطوط المواصلات، وقد حفظت لنا المراجع اسم أول مدير للتموين والنقل فى هذه البلاد بالمعنى الحديث، وهو نظيف بك الذى أشرف على إدارة هذه المستودعات الكبيرة المنتشرة فى أرجاء سيناء وفلسطين وسوريا، وقد جاء فى تقرير من المهندس قاسم آغا بتاريخ ٢٤ من رمضان ١٢٤٧هـ (١٨٣٢م) ما يلى: بما أن الجيش المصرى أصبح بعيدا عن مصر يحول بينه وبينها الصحراء وأن طريق البحر ليس بمأمون دائما وأنه ليس هناك غلال لتموين الجيش لسبب ما استحكم فى البلاد المفتوحة من القحط والغلاء فأقترح إنشاء مخازن للغلال مع وسائل النقل اللازمة لإيصال مئونة الجيش من مصر إلى محطة فمحطة حتى المعسكر، ثم استطرد هذا المهندس فى تقريره يوصى بإنشاء مستشفى رئيسى فى دمياط لمعالجة المرضى والمصابين، ومن ثم تشكيلهم فى وحدات جديدة تتولى أعمال الحراسة أو سد النقص فى الوحدات المحاربة.

وقد اضطر محمد على قبل عشرين عاما من هذه الحملة أن ينهض بجميع مرافق القطر المصرى من تعليم وصحة وتجارة وصناعة

وزراعة كي يتسنى له إنشاء قوات مسلحة حديثة لينجد بها السلطان عندما كان على وفاق معه، أو ليوسع مملكته فيما بعد، فتدرب جنده في حروب المورة وكريت والجزيرة العربية والسودان، وما رسوا كافة فنون القتال فوق مختلف الأراضي في المناطق الحارة والباردة، وقد استعان محمد علي بالضباط الذين استقدمهم من أوروبا، وكان أشهرهم رئيس الأركان سليمان باشا الفرنساوي(١) وكان نابغة في الأمور التعبوية والسوقية، وأنشأ محمد علي مدارس للمدفعية والهندسة والفرسان والموسيقى والخدمات الطبية والأركان والمشاة، وأقام مصانع الأسلحة وصب المدافع في "ترسانة" القلعة كما شاد معامل للبارود في جزيرة الروضة والبدرشين والفيوم، ومصانع للغزل والنسيج والبطاطين والطرابيش وسبك الحديد وطرق ألواح النحاس ودبغ الجلود وعمر القلاع والحصون على السواحل وأضحى محمد علي التاجر الوحيد ثم الصانع الوحيد فسيطر على اقتصاديات البلاد وضبط مواردها.

ثورة فلسطين

حاول بعض مشايخ جبل نابلس، والمعادين لآل عبدالهادي أن يعلنوا الثورة في جبلهم علهم يفوزون ببعض المناصب في عهد إبراهيم باشا، ولكنهم لم يلقوا تأييدا كاملا من أهالي المنطقة فانتقلوا إلى القدس في شهر نيسان عام ١٨٣٤، ومعهم عشرون ألف محارب من الأهالي المؤيدين لهم، وحاصروا حامية القدس مدة ٢٠ يوما، ثم تمكنوا من دخول أحد السراديب القريبة من مقام النبي داود، فنفذوا

١- جند برتبة عقيد ثم تدرج في المناصب حتى أصبح رئيسا للأركان واسمه الأصلي سيف "Seves" وهو من أهالي ليون وخدم في جيش نابليون.

إلـى داخـل المدينـة ونهبـوا محتوياتهـا وذبحـوا رجـال الحاميـة وعددهـم ألف جندى، ثم امتدت نار الثورة إلى جبل الخليل فهب رجال المدينة وهاجموا الحامية وذبحوا رجالها أيضا وقد بلغ عددهم ٢٠٠ جندى.

ولما بلـغ إبراهيم باشـا الخـبر توجـه علـى رأس ٥٤٠٠ جنـدى نحـو القدس، واصطدم فى طريقه مع جموع أبى غوش التى ساءها المنشور السـابق ذكـره الـذى يمنعهـا مـن جبايـة "الحـوة" من الحجاج والمسافرين، فوقعت معركـة حاميـة فـى قريـة العنـب غربـى القـدس، اسـتمرت مـن الظهر إلى المساء ولولا أن دير الروم قدم الزاد اللازم لقوات إبراهيم باشـا لتضعضعـت معنويـات جنـوده، وفـى الصبـاح اسـتؤنف القتـال بيـن الطرفين، وتغلـب الجيـش النظـامى علـى رجـال العشـائر ودخـل القـدس عنوة فتشرد المشايخ وتحولوا إلى جبل نابلس لإشعال نار الثورة من جديد.

جمـع الشـيخ قاسـم الأحمـد والشـيخ عيسـى البرقـاوى (٢) خمسـة وستين ألفا من محاربى جبل نابلس وأقاموا فى المدينة فترة من الوقت رتبوا فيها أمورهم ورسموا خططهم ثم توجهوا ثانية إلى القدس، ولما وصلـوا إلـى الشـيخ جـراح وعسـكروا هناك انصبت عليهم نيران مدافع إبراهيم باشـا، وكـان عربـان الغـور الذيـن لـم يـألفوا الحكـم النظـامى ومـا يـترتب علـى ذلـك مـن تجنيـد وضـرائـب قـد ظهـروا بـالقرب مـن "عيـن سلوان" كما بدت جموع جبل الخليل بقرب "مار إلياس"، وعلى الرغم مـن أن إبراهيم باشـا اسـتطاع أن يدحرهـم جميعـا ويتغلـب عليهـم فإنـه خسـر كثـيرا مـن جنـوده ومعداتـه، وعنـد ذلـك توسـط رؤسـاء الأديـرة

١- لاتزال قلعة تطل على سبسطية وبرقة من الشرق.

بالصلح بينه وبين الثوار وحملوه على أن يرسل إلى الشيخ قاسم الأحمد كتابا رقيقا قبل فيه الشروط التالية.

١- أن ترفع عن البلاد "الفردة" أى الضريبة على الرءوس.

٢- يلغى التجنيد الإجبارى.

٣- يسحب الجند من البلاد (باستثناء حامية صغيره من القدس).

غير أن سليمان باشا الفرنساوى تمكن من استمالة آل أبى غوش بعد أن فك أسر كبيرهم من سجن عكا فأمن مواصلات الحملة بين يافا والقدس، كما استمال إبراهيم باشا بعض الشيوخ الآخرين فقطع علاقته بالشيخ قاسم الأحمد.

توجه إبراهيم باشا بعد ذلك إلى يافا ليقابل والده الذى كان القناصل قد أخبروه بأن ابنه محاصر فى القدس فجاء ينجده بثلاثة آلاف، أما الشيخ قاسم الأحمد فإنه جمع مؤيديه وقال لهم لولا عجز إبراهيم باشا لما قبل بشروطنا، والآن وقد نكث بها فالأوفق أن نعود إلى طاعة السلطان، فذهب إلى منطقة طولكرم وحشد رجاله فى قرية دير الغصون كما حشد إبراهيم باشا جنده فى قرية زيتا المقابلة لها، وهناك دارت رحى حرب شعواء زهق فيها أرواح ٧٠٠ من الأهالى، فرجحت كفة الجيش النظامى، وعوقبت القرى العاصية، وهرب الشيخ قاسم الأحمد وغيره من المشايخ فاقتفى إبراهيم باشا أثرهم وأتى بنى صعب وقبض على الشيخ عيسى البرقاوى فى وادى الشعير، ثم التقى بجموع آل جرار ودحرهم إلى صانور وحاصرهم فيها وضرب القرية بمدافعه، واضطرهم إلى التسليم، ثم تمركز فى موقع سيلة الظهر ونادى فى جيشه بإباحة نابلس وهدمها فى ظرف ثلاثة أيام، ولكن

تمكن أحمد أغا النمر أن يهدىء من غضبه ويذكره بمآثره وفروسيته، فعفا عن المدينة وتوجه إليها ونصب صوانة فى بستان البصة بوادى نابلس قرب عين بيت الماء على الطريق العام، ووفد عليه المشايخ والوجهاء مرحبين خاضعين.

تسلل الشيخ قاسم الأحمد من نابلس واستجار بعشيرة العدوان فى البلقاء فتبعه إبراهيم باشا بجيشه ودخل السلط وتغلب على محاربى العدوان وأنصارهم من بنى صخر، وقبض على عقيد عشيرة العدوان الأمير ذياب الحمود بعد أن أظهر شجاعة فائقة، وتخلص من التطويق ثلاث مرات، فدهش له إبراهيم باشا وقدر شجاعته فلم يقتله بل اكتفى بسجنه، أما الشيخ قاسم الأحمد فتمكن من الهرب هو وأولاده ورجال الثورة واستجاروا بأهالى الخليل، فتوجه إليهم إبراهيم باشا، ولما علم أن أهالى جبل الخليل وبقية الثوار تقدموا باتجاهه حتى وصلوا إلى برك سليمان بادرهم بالسؤال: أطائعون أنتم أم عاصون؟ "فأجابوه": عاصون ثم عاصون!

ولم يكن رده عليهم إلا نيران المدافع، فدحرهم إلى مدينتهم وأمعن فى تقتيلهم وتعذيبهم، وقد تسمت إحدى عائلات الخليل بلقب يعيد إلى الأذهان رهبة هذه المذبحة التى لم ينج منها إلا من هاجر خارج البلاد أو احتمى داخل الحرم الإبراهيمى. ثم عين إبراهيم باشا أركانه سليمان باشا الفرنساوى واليا على المدينة، وأخذ كثيرا من شباب المدينة جنودا إجباريين فى جيشه النظامى.

لحق إبراهيم باشا إلى القدس وحصنها وبنى قلعتها الحالية بباب الخليل، وجمع باقى مشايخ جبل نابلس وحكام البلاد فى عكا، وجعلهم

يقرون نظام الخدمة الإجبارية (من العشرة واحد)، وبقى فى بلاد الشام يقاسى من دسائس الأجانب، وحزب الدولة وثورات الأهالى هنا وهناك إلى أن تغلبت عليه الدول الأوروبية بنفوذها وسطوتها فانتهى حكمه عام ١٨٤٠.

الفصل السادس

حملة اللنبى

مقدمه

كان السلطان العثمانى سليم الأول (١٤٧٠ - ١٥٢٠) قد أنهى حكم المماليك فى بلاد الشام على أثر انتصاره فى معركة مرج دابق فى سنة ١٥١٦، وفى السنة التالية احتل مدينة القدس، فبقيت تحت الحكم العثمانى باستثناء الفترة بين سنتى ١٨٣١-١٨٤٠ وكانت خلالها تحت حكم إبراهيم باشا ابن محمد على باشا إبان حملته على سورية، وقد ترك إبراهيم باشا سورية سنة ١٨٤٠ بنتيجة ضغط الدول الكبرى، فعادت إلى الدولة العثمانية، وقد تميز الحكم العثمانى فى فلسطين منذ القرن السابع عشر بظهور الخلافات بين الطوائف المسيحية المختلفة ونزاعها على النفوذ فى الأماكن المقدسة، وكانت إحدى نتائج هذه الخلافات «حرب القرم» سنة ١٨٥٣ بين روسيا التى ادعت حماية الأورثودوكس، وفرنسة وإنكلترة اللتين ادعيتا حماية اللاتين، وفى أعقاب حرب القرم بدأت الدولة العثمانية بإدخال بعض الإصلاحات التى تقضى بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانية، وسمحت بتعيين قناصل للدول الأجنبية فى القدس، وبذلك بدأ التغلغل الاستعمارى فى فلسطين، وجد معه ازدياد الهجرة اليهودية وتفاقم عدد اليهود فى فلسطين تدريجيا.

وتحولوا إلى فلسطين فصارت أهم الجبهات التى دارت فيها معارك حاسمة بين القوات البريطانية والتركية التى دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا، وكان القائد التركى جمال باشا قائد الجيش الرابع والملقب

بالسفاح قد حاول الهجوم على السويس، فلما فشل فى محاولته انكفأ نحو فلسطين تاركًا فى سيناء قوة تركية بقيادة الجنرال «فون كرس»، وكانت القيادة البريطانية تحاول الحصول على مكسب استراتيجى، ورأت فى احتلال فلسطين ودخول القدس ما يحقق لها ذلك فأخذت تستعد للزحف على صحراء سيناء نحو العريش، وشرعت فى مد خطوط السكة الحديد باتجاه فلسطين وعززت قواتها بالدبابات والمدافع الثقيلة.

ووصل الجنرال اللنبى إلى القاهرة فى حزيران (يونية) سنة ١٩١٧، حاملا أوامر من الحكومة البريطانية باحتلال فلسطين.

القصد من الحملة

كانت قوات الحلفاء المرابطة فى الميدان الغربى بفرنسا فى حالة ركود نسبى بعد الانتكاسات التى منيت بها، وعلى الرغم من أن الحلفاء كانوا يعتبرون ميدان الشرق الأوسط جهة ثانوية إلا أنهم أرادوا إحراز أى نصر كان، ليرفعوا من مستوى الروح المعنوية بين شعوبهم.

الزحف والهجوم على غزة

اجتازت قوات الحملة شبه جزيرة سيناء فى بداية عام ١٩١٧ بقيادة الفريق مورى الذى مد وراءه خطا للسكة الحديدية وخطا للمياه وشن هجوما على مدينة غزة بغية احتلالها والاندفاع نحو الشمال، غير أن الأتراك استطاعو صد هذا الهجوم على عكس ما توقع الإنكليز، وقد أنزلوا بهم خسائر فادحة، وعندما حاول الإنكليز شن هجومهم الثانى أصيبوا بخسائر أشد وأنكى من خسائرهم الأولى، غير أن الحكومة البريطانية قررت استمرار عمليات غزو الأرض المقدسة وعينوا الفريق أدموند اللنبى القائد السابق للجيش الثالث بفرنسا ليقود الحملة اعتبارا من ٢٨/ ٦/ ١٩١٧.

محور الزحف

لاشك أن خط الزحف الطبيعى على فلسطين يجب أن يحاذى الساحل لأنه أقصر الطرق وآمنها، ولاسيما أن أسطول الحلفاء كان مسيطرا على البحار، ويستطيع إسناد المشاة على الرغم من وجود الغواصات الألمانية، ولكن غزة أصبحت قلعة حصينة تعترض سبيل تقدمهم؛ كما أن جبهة القوات التركية الوسطى كانت قوية هى الأخرى، ولا يمكن الاقتراب منها إلا عبر سهل منبسط مكشوف تشرف عليه سلسلة من التلال المقفرة، أقام فوقها الأتراك عدة تحصينات منيعة، وكان جناحهم الأيسر ممتدا مسافة أربعة أميال من بئر السبع، غير أن استحكامات هذه المنطقة كانت أضعف من استحكامات منطقة بئر السبع، كما أن طبيعة الأرض أكثر ملاءمة للعمليات التعرضية، وقد أتاح مرتفع لهذا المكان المجال للالتفاف حول

مؤخرة القوات التركية، وأن يستولوا على آبار المياه فيها.

وفى شهر آب قسم الفريق اللنبى قواته إلى ثلاثة فيالق، ونقل مقر قيادتـه مـن القـاهرة إلـى الميـدان، وكـان الطقس قاسـيا ودرجـة الحـرارة مرتفعة جدا.

الهجوم على بئر السبع

كـانت الخطـة فى غاية البساطة، وهى تتلخص فى حشد قوة كبيرة ضد جناح الأتراك الأيسر مع إيهامهم بأن القصد هو مهاجمة جناحهم الأيمـن فـى غزة، وقد تبلـورت هـذه الخطـة إثـر اجتماعـات كثيـرة ترأسـها اللنبى بنفسه، وجاء استيعابه لجميع تفاصيل المعركة كاملا من حيـث نواحيهـا السـوقية والتعبويـة والإداريـة، وقضـت خطـة الاقتحـام أن يُشَـكّلَ الفيلـقُ العشـرون وفيلـق فرسـان الصـحـراء (يعـادل القـوة المدرعـة فـى الوقـت الحـاضر) القـوة الضاربـة الرئيسـية ضـد الجنـاح الأيسـر الـتركى، بينمـا يشـاغل الفيلـق الأخيـر وهـو الفيلـق الحـادى والعشـرون القوات التركية المتمركزة فى غزة.

تبـدت صعوبـات جمـة أمـام الحلفـاء أهمهـا وعـورة المسـالك وشـحة الميـاه وصعوبـة المحافظـة علـى عنصـر المفاجـأة، ولـم يكـن هينـا تحديـد موعـد بدء العملية، فهناك وحدات لم تصل بعد، ويُخْشَى حلول فصل الأمطـار الغزيـرة فـى أواسـط شـهر تشـرين الثـانى حيـث يتحـول السـهل الساحلى إلى شبه مستنقع من الوحول، وقد ظهرت دلائل تشير إلى أن الأتراك ستعززهم قوات قادمة من الشمال.

وأخـيرا عيـن موعـد الهجـوم علـى بئـر السـبع كبدايـة للشـروع فـى معركـة غـزة بوابـة فلسـطين الجنوبيـة ليلـة ٣٠،٣١/ ١٠/ ١٩١٧ عندمـا

اكتمل القمر بدراً، فتحرك ما لايقل عن أربعين ألف جندى فى أضخم زحف ليلى منظم لم يحدث له مثيل من قبل، فاحتل مشاة الفيلق العشرين التحصينات الرئيسية بعد الظهر وأحرزوا نجاحا تاما، ولكنه اعتبر بمثابة انتصار ثانوى لأن البلدة وآبارها مازالت تبعد ثلاثة أميال أو أربعة فأوكلت مهمة احتلالها لفيلق فرسان الصحراء الذى اعترض طريقه "تل السبع" المتحكم على مشارف البلدة من الشرق، فاندفع أحد ألويته الخفيفة وشن على عاتقه هجوما خاطفا على الرغم من جهله بطبيعة الأرض، واستطاع فى النهاية أن يصل إلى آبار المياه قبل الضوء الأخير، فاستولى عليها دون أن يتمكن الأتراك من نسفها، وفى اليوم التالى دخل اللنبى مدينة بئر السبع.

وبعد مرور ثمان وأربعين ساعة استغرقت فى عمليات الكشف وجلب المياه والاستعداد حان وقت مشاغلة الأتراك فى غزة بهجوم يشنه الفيلق الحادى والعشرون ليلة ١،٢/ ١١/ ١٩١٧ فأمكن استدراج التعزيزات التركية إلى منطقة غزة مقابل خسائر فادحة تكبدها ذلك الفيلق، وقد خشيت القيادة العامة التركية فى ذلك الوقت أن تتعرض مدينة القدس للهجوم عن طريق الخليل، فأرسلت تعزيزات جديدة لحماية القدس، واسترجاع بئر السبع، فاضطر الحلفاء إلى تأجيل هجومهم بثلاث فرق منتخبة، وأمكن اختراق الجناح فسقط هذا الموقع السوقى المهم بعد أن استعصى احتلاله مرتين وأعاق توقيت الحملة ثمانية أشهر، فبدأت عملية المطاردة عبر السهل الساحلى بمساندة الأسطول من البحر.

المطاردة عبر السهل الساحلي

إن حركة المناورة التى كان اللنبى يفكر فيها لإتمام انكسار جبهة غزة – بئر السبع هى استثمار النجاح بواسطة القوات الراكبة واحتجاز فلول الأتراك بعد استباقها بدون مطاردتها إلى أن تتقدم المشاة والمدفعية لتضرب مقدمة الأرتال المنسحبة أو أجنحتها بدلا من مؤخرتها القوية، وتقطع طرق مواصلاتها فصدرت الأوامر يوم ٦/ ١١ إلى فيلق الصحراء بأن يتحرك استعدادا لاستثمار ما يحرزه الفيلق العشرون من نجاح، وفى مساء يوم ٨/ ١١ انتهت المرحلة الأولى من عملية الاستثمار دون أن تنجح القوات التركية فى احتجاز القسم الأكبر من الأتراك الذين كان موقفهم حرجا على الرغم من أنهم نجوا من الفناء ولم يتمكنوا من الثبات عند وادى حسى، وكان أنسب خطوط الدفاع الطبيعية لهم بعد ذلك هو نهر سكرير الذى يبعد شمالا بنحو ١٥ ميلا، وقد جرى استخدام سلاح الجو فى هذه المرحلة لقذف فلول الأتراك بقنابله ولرميهم بالرشاشات، وكانت تقاريره تفيد بأن الجيشين السابع والثامن التركيين فقدا قواهما المعنوية وأوشكا على نهايتهما، فأصدر اللنبى أوامره يوم ٩/ ١١ بتطويق جبهة نهر سكرير، وتقدمت ثلاث فرق باتجاه المجدل وبيت دوراس وأسدود، فأسرت بعض وحدات الجيش الثامن التركى، وقد ذكر فون كرسنشتاين مدى الذعر الذى دب فى معسكر هذا الجيش بعد الظهر عندما ظهرت دلائل الاختراق الذى قامت به الفرسان، وفى ذلك اليوم أمكن التقاط برقية تركية أفادت أن الأوامر صدرت إلى الجيش السابع التركى لشن هجوم معاكس من الخليل ضد جناح الإنكليز الأيمن، وقد تجاهل اللنبى هذا التهديد، واكتفى بتحريك لواء الهجانة من بئر السبع

إلى النجيلة ليكون على جنب أى هجوم يوجه ضده من التلال، وظهر فيما بعد أن القوة المرسلة من الخليل لم تصل سوى قرية بيت جبريل.

قامت إحدى فرق فيلق الصحراء بمسير ليلى من هوج ليلة ٩، ١٠/ ١١ وتمركزت قرب عراق المنشية والفالوجة، كما أقامت فرقة أخرى رأس جسر على نهر سكرير، وتقدمت فرق الفيلق الحادى والعشرين نحو أسدود، وتمركزت فرق الفيلق الثانى والعشرين شمالى بئر السبع، وعند هوج وكرم وفى هذين اليومين اشتدت مقاومة الأتراك، واتضح أنهم ينوون الثبات لحماية مفرق سكة حديد القدس، فتمركزوا فى وادى الصرار وبمحاذاة نهر روبين.

أصدر اللنبى أوامره باستئناف الهجوم جنوبى الطريق الرئيسى بين غزة ومفرق السكك الحديدية صباح يوم ١٣/ ١١ وتم له الاستيلاء على تل الترمس وقسطينة والمسمية، وتوقف الهجوم أمام قطرة والمغار وزرنوقة والقبيبة، ولم تسقط هذه القرى الأربع إلا بعد قتال مرير، وعلى الرغم من أن اللواء المكلف بالاستيلاء على محطة مفرق السكك الحديدية توقف عن التقدم بسبب حلول الظلام، فإن المقاومة التركية انهارت وكانت القوات التركية بكاملها فى حالة تقهقر تام، وجرى احتلال المحطة صباح اليوم التالى.

وفى يوم ١٥/ ١١ استمر التقدم نحو اللطرون، وتم الاستيلاء على اللد والرملة، وكان الجيشان التركيان السابع والثامن منفصلين ولا يصل بينهما سوى مؤخرة احتلت المرتفعات المحيطة بقرية أبى شوشة، وبعد طرد هذه المؤخرة احتلت إحدى الفرق اللطرون كما دخل أحد الألوية مدينة يافا بدون مقاومة، وبالاستيلاء على هذا الميناء

وانسحاب الجيش الثامن خلف نهر العوجة، واحتماء الجيش السابع بين جبال القدس، انتهت عملية المطاردة عبر السهل الساحلى.

الاستيلاء على القدس

كان الجيش الثامن التركى معتمدا فى تموينه على الخط الرئيسى للسكك الحديدية كما اعتمد الجيش السابع على الطرق البرية القادمة من نابلس أو من عمان الواقعة على سكة حديد الحجاز، ونظرا لرداءة المواصلات بين جناحى الجيشين لم يبق أمام اللنبى سوى أن يختار أى الجيشين يقاتل أولا، وعلى الرغم من أنه قرر فى السابق أن يتوقف بعد تطهير السهل الساحلى ولا يقتحم الأراضى الجبلية الوعرة إلا بعد إعادة تنظيم مواصلاته، غير أنه صمم على استثمار ما أحرز من نجاح، وقرر التقدم فورا نحو القدس قبل أن يتوافر الأتراك والوقت الكافى لتحصين الممر السفلى.

وبتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩١٧ تقدمت إحدى الفرق واحتلت قرية بيت عور التحتة وواصلت فرقة أخرى تقدمها فاحتلت قرية سريس بعد الظهر عقب قتال عنيف فوق مرتفع يحيط بقريتى سريس والعناب، ولم يتيسر فى هذه المعركة إسناد المشاة بنيران المدفعية إلا قليلا بسبب صعوبة تحريك المدافع خارج الطريق فى جزئه المار عبر مضيق باب الواد، ثم تحولت هذه الفرقة فى تقدمها واتجهت شمالا بشرق نحو مدينة البيرة التى كانت مستعصية على فرقة أخرى، وعندما وصلت إلى قرية بدوّ ظهر لها أن مرتفع النبى صمويل يتحكم فى مواصلاتها فاحتلته قبيل منتصف الليل، وقد ظهر فيما بعد أن احتلال هذه القمة البالغة الأهمية هو أقصى ماوصل إليه الإنكليز فى

محاولتهم الأولى للاستيلاء على القدس، فقد شن الأتراك ثلاث هجمات معاكسة على النبى صمويل، كما ردوا إحدى الفرق نحو قرية بيت عور الفوقة، فاضطر اللنبى فى اليوم الرابع والعشرين أن يصدر أوامره بإيقاف الهجوم وتعزيز الجبهة، لأن الأتراك كانوا متمركزين فى مواقع حصينة تتطلب التعزيزات ولاسيما المدفعية.

انتفع الأتراك بالفترة المنقضية بين المحاولة السابقة وبين الهجوم النهائى على القدس فشنوا عدة هجمات معاكسة بقوات خاصة أسموها وحدات الاقتحام، ولم يعرف مغزاها التعبوى، ولكنها بدون شك ألمانية الفكرة، فقد كان الإنكليز منهوكى القوى وفى موقف يسمح بإجراء هذه العمليات الانتقامية التى تمخض عنها انسحاب الفرقة التمركزة فى بيت عور الفوقة. بدأ الهجوم الرئيسى فجر يوم ٨/ ١٢ وكان الارتكاز على اليسار وليس على اليمين، كما حدث فى السابق، فاندفع جناح الفيلق العشرين الأيمن عبر ضواحى القدس الغربية مارا بطريق نابلس مباشرة، وتمركز لواءان قدما من الخليل شرقى بيت لحم لحماية ميمنة الهجوم وقطع مواصلات القدس مع أريحا.

قدرت قوة الجيش التركى السابع بما يتراوح بين خمسة عشر وستة عشر ألف مقاتل، وكانت مواقعهم غربى القدس محفورة فى سفوح التلال وهى منيعة، ويتألف بعضها من ثلاثة خطوط لإطلاق النار، كانت مقاومة الأتراك أقل من المعتاد بسبب توالى الانهزامات، وقد استطاعت إحدى الفرق أن تحتل ما وراء قرية بيت أكسا، كما استطاعت أخرى أن تحتل قرية دير ياسين، ثم توقف التقدم بعد الظهر بسبب هطول الأمطار، وتكاثف الضباب، وأمرت القوات بتعزيز

المواقع المكتسبة ثم استئناف الهجوم فى اليوم التالى، غير أن ما بذلته من جهود لغاية الآن كان كافيا لكسب المعركة دون أن يكتشفوا ذلك فى حينه، فقد خسر الأتراك أقوى مواقعهم ولم يبق لديهم أى أمل فى الدفاع عن القدس، فانسحبوا ليلة ٨،٩/ ١٢/ ١٩١٧ وغادر آخر جندى تركى المدينة مع الفجر، وانتهى بذلك حكم الأتراك الذى دام أربعة قرون ليبدأ عهد الانتداب البريطانى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبور نهر الاردن

كان استئناف تقدم اللنبى مثار جدل عنيف بين مؤيدين ومعارضين، وقد لوحظ أن المحك الرئيسى للآراء هو مناعة خط الحلفاء فى الميدان الغربى بفرنسا أو عدم مناعته، وهل تقضى الضرورة بسحب قوات من فلسطين لتعزيزه؟ فقد كان المعارضون يحبذون عدم المجازفة مرة أخرى فى جبهة منفصلة فى الشرق، ويعتبرون سلامة الميدان الغربى على جانب كبير من الأهمية، لأن الهزيمة هناك معناها خسارة الحرب مهما كانت درجة الانتصار فى الشرق، كما أن الاستيلاء على دمشق أو حتى على حلب لا يهدد أواسط تركيا ولا يرغمها على الاستسلام إذا رأت حليفتها ألمانيا تجتاح فرنسا، وكانت أهم الفوائد هو فتح الدردنيل للوصول إلى روسيا، وقد زالت هذه الفائدة بخروج روسيا من الحرب، علاوة على ذلك فإن حملة فلسطين مضيعة لبواخر التموين والإمدادات التى تضطر لاجتياز أشد مناطق الغواصات خطورة فى البحر الأبيض المتوسط، وأهم ما احتاجه الحلفاء وقتئذ هو البواخر لنقل الأمريكيين إلى أوربا فلا ضرر من ترك تركيا تدمى حتى تموت دون أن تؤذى أحدا بينما تركز الجهود فى الميدان الغربى لمواجهة الضربة الألمانية المنتظرة.

أما المؤيدون فإنهم كانوا بدون شك يدركون أهمية الميدان الغربى ولكنهم اعتبروا القوات المتمركزة فى فرنسا وبلجيكا كافية للحفاظ على سلامة هذا الميدان، وأن انفلات زمام المبادرة فى كافة الميادين والاتكال على موقف دفاعى محض ما هو إلا عمل اليائس، وقد يكون مسرح فلسطين مضيعا للبواخر ولكن المسرح الغربى مضيعا للأرواح، وهو أشبه ما يكون بشقى الرحى يسحق فيه مقاتلو الطرفين

دون إحراز تقدم يذكر.

وأخيرا قرر مجلس الحرب الأعلى للحلفاء الذى انعقد بفرسايل فى شباط عام ١٩١٨ اتخاذ موقف دفاعى فى الميدان الغربى وتوجيه ضربة قاضية فى فلسطين، فاستأنف اللنبى تقدمه، وكانت تقضى خطته بالتقدم باجتياز نهر الأردن أولا ثم التقدم بعد احتلال واديه نحو عمان لنسف سكة حديد الحجاز وعزل القوات التركية المتمركزة فى المدينة المنورة، ولا سيما أن ساعد الثورة العربية الكبرى قد اشتد. وبعد أن يوهم الأتراك بأنه غير محور تقدمه يتحول فى فصل الجفاف إلى السهل الساحلى ليستولى على خط طبرية - حيفا ثم يواصل تقدمه شمالا.

وفى الجانب التركى اتخذت إجراءات حكيمة فى الوقت المناسب، فقد استدعى على الفور وحدات من الجيش السابع المتمركزة شرقى نهر الأردن لتعزيز القوات المتمركزة على طريق بيسان - أريحا وطريق نابلس - القدس. كما تولى الفريق ليمان فون ساندرس الألمانى قيادة مجموعة الجيوش التركية بفلسطين فى أول آذار بدلا من فون فولكتهاين.

بدأت العمليات الحربية يوم ١٩/ ٢/ ١٩١٨ وتم احتلال مدينة أريحا، ولكن فشلت عملية اقتحام نهر الأردن عبر جسر الغورانية (جسر الملك حسين حاليا وجسر اللنبى سابقا)، وكان الموقف يتطلب طرد الأتراك شمالا فى وادى الأردن نفسه وفى سلسلة الجبال الشرقية كى يتسع مجال المراقبة ويصعب على الأتراك حشد قواتهم لشن الهجمات المعاكسة، فأنيط بالفيلق العشرين مهمة طرد الأتراك شمال

العوجة والاستيلاء على المرتفعات المحيطة بأبى التلول التى تتحكم بمياه نهر العوجة وبطريق بيسان - أريحا، والتقدم بمحاذاة طريق نابلس لغاية خط كفر مالك - سنجل - النبى صالح، كما أنيط بالفيلق الحادى والعشرين مهمة الاندفاع بميمنته حتى خط وادى دير بلوط - مجدل يابا، تنسيقا للعمل مع الفيلق العشرين، وقد اشتبك هذان الفيلقان فى قتال عنيف دام أربعة أيام، وفى يوم ١٢ من آذار وصلا إلى أهدافهما وأصبح طريق الإغارة على عمان مفتوحا، إلا أن هطول الأمطار الغزيرة وارتفاع منسوب مياه النهر عرقل العمليات الحربية التى دامت من ٢١ من آذار لغاية ٢ من نيسان، ولم تستطع القوة الرئيسية عبور نهر الأردن إلا يوم ٢٣ من آذار، وفى صباح اليوم التالى شنت هجوما على المواقع التركية قرب الشونة، واستولت عليها بعد قتال عنيف، ثم تقدمت على طريق السلط متجشمة مصاعب جمة بسبب وعورة الطريق، وقد استطاع لواء فرسان أسترالى أن يستولى على مدينة السلط مساء يوم ٢٥ من آذار، ثم استأنفت القوات الراكبة تقدمها نحو عمان، ولحقت بها سريتا فرسان أخريان، ولكنهما تأخرتا قرب صويلح بسبب اندلاع حرب محلية بين الشركس والعرب.

وعندما لم يستطع الإنكليز أن يستولوا على عمان بدءوا انسحابهم ليلة ٣٠،٣١ آذار بعد أن تمكنوا من قطع السكة الحديدية شمالى المدينة وجنوبيها، وفى هذه الأثناء هاجمت قوة تركية قدمت عن طريق جسر داميا مدينة السلط، وقبل أن يحل مساء يوم ٢ نيسان كانت جميع القوات الإنكليزية قد ارتدت عبر نهر الأردن ولم يبق شرقيه إلا رأس جسر قرب الغورانية.

وعلى الرغم من أن الألمان بدءوا فى ذلك الحين هجومهم العام فى فرنسا ورحّل الإنكليز فرقتين من فلسطين إلى الميدان الغربى لم يكن اللنبى راضيا باتخاذ الموقف الدفاعى الذى أمر به يوم ٢٧ من آذار، لقد حاول أول الأمر أن ينفذ خطة سابقة تقضى باندفاع ميمنة الفيلق الحادى والعشرين، ولكنه تكبد خسائر غير قليلة من ٩-١١ نيسان لم يبررها مساحة الأرض التى كسبها بسبب كثرة أعشاش الرشاشات بين صخور الجبال، وعدم تمكنه من إحراز المفاجأة لأن الأتراك عثروا على نسخة من أوامر العمليات فى ملابس جثة أحد الضباط وحينئذ أراد اللنبى إيهام الأتراك بأنه يقصد مهاجمة ملتقى شبكة السكك الحديدية فى درعا، فوضع خطة تقدم ثان عبر نهر الأردن وكرر محاولته الأولى، وعلى الرغم من أن هذه الغارة انتهت أيضا بهزيمة تعبوية واضحة إلا أن تأثيرها السوقى كان مواتيا إذ إن الأتراك احتفظوا منذ ذلك الوقت بتثبيث قوتهم شرقى نهر الأردن.

الهجوم العام (موقعة مجدو)

كانت القوات التركية منظمة فى ثلاثة جيوش، تمركز الجيشان السابع والثامن منها غربى نهر الأردن، وتمركز شرقيه الجيش الرابع، وقد احتل الجيش الثامن نصف الجبهة من الساحل حتى قرية فرخة مسافة ٢٠ ميلا بقيادة جواد باشا خلف كرس فون كرستشتاين الألمانى، وكان مقره طولكرم، أما الجيش السابع فقد احتل نصف الجبهة الآخر لغاية وادى الأردن بقيادة مصطفى باشا كمال (أول رئيس للجمهورية التركية) ومقره فى نابلس، وعين المشيرفون ساندرس الألمانى قائدًا عاما لمجموعة الجيوش التركية فى شباط عام ١٩١٨ وكان مقر قيادته فى مدينة الناصرة.

وضع اللنبى خطة الهجوم على غرار خطته فى غزة وبئر السبع، ولكن بشكل معكوس، فهناك هاجم جناح الأتراك الأيسر مع إيهامهم بأن قصده هو الاندفاع بمحاذاة الساحل، أما هنا فكان يرغب فى أن يخترق جناحهم الأيمن قرب الشاطىء مع إيهامهم بأنه يقصد مهاجمة عمان ودرعا أولا، وقد اتخذت جميع التدابير الكفيلة بخداع الأتراك وأجريت فى ساعات الظلام كافة التحركات من الشرق إلى الغرب، فاستدعيت القوات التى عسكرت طيلة فصل الصيف فى وادى الأردن، وتعرضت للنيران والملاريا والحرارة الشديدة فى سبيل خداع الأتراك، وحشدت بين أشجار البرتقال والزيتون فى خيام منصوبة سلفا حيث أبقت خيامها الأصلية منصوبة فى وادى الأردن لإيهام الأتراك بأن الهجوم سيوجه نحو الشرق.

وبتاريخ ١٩/ ٩/ ١٩١٨ باشر الفيلق العشرون بالتحركات الأولية من جبال القدس استعدادا للموقعة الكبرى، وكانت الخطة العامة تقتضى منه أن يتقدم باتجاه نابلس على محورين فرعيين بينهما فجوة تحرسها قوة منفصلة، ويتحاشى سلوك الطريق العام، فاندفعت ميمنته بمجرد حلول الظلام عبر وادى السامية، وقامت بحركة التفاف واسعة خلف المواقع التركية الأمامية، وتمت العملية وفوجىء الأتراك مفاجأة تامة بفضل الترتيبات المحكمة، وفى هذه الأثناء بدأ الفيلق الحادى والعشرون اقتحامه على جبهة اتساعها عشرة أميال فى القطاع الساحلى، بعد أن فتحت جميع المدافع نيرانها فجأة لمدة ١٥ دقيقة، وتم له اقتحام جميع التحصينات المحيطة بجلجولية وقلقيلية، واستولى على الطيرة بعد قتال عنيف، فتقهقرت قوات الجيش الثامن ووصلت إلى محطة المسعودية فى طريقها إلى طولكرم، وهناك فتك بها سلاح الجو

بقنابلـه ورشاشــاته، فانكســر هـذا الجيـش دون أن يعلـم ليمــان فـون ساندرس فى حينه، فقد اندفع نحوه لواء من الفرق. المتجهة إلى بيسان والعفولـة للقبض عليـه فـى النـاصرة، ولكنـه تمكن مـن الهـرب فـى آخـر لحظـة، ونقـل مقـره إلـى طبريـة. استمرت القـوات فـى تقدمهـا وتـم كسر الجيش السـابع أيضـا قبـل حلـول مسـاء يـوم ٢٠/ ٩ أى بعـد مـرور ٢٦ ساعة من بدء العمليات العسكرية.

الدروس المستفادة

سبق للقائد العام للقوات التركية فى فلسطين الجنرال الألمانى ليمان فون ساندرز، (الرئيس السابق للبعثة العسكرية الألمانية) أن أقام مقره الرئيسى فى «الناصرة». وكان تحت قيادته ثلاثة «جيوش» هى السابع والثـامن والرابـع، بعـد أن اسـتدعى قـائد الجيش الرابع أحمد جمال باشا (السـفاح) إلـى العاصمـة التركيـة، وكـانت هـذه الجيـوش ضعيفـة لايكـاد عدد أفراد كل منها يزيد عن أعداد فرقة واحدة. وكان الجيش الثامن تحت قيادة جمال باشا الصغير، والسابع ومقره نابلس- بقيادة مصطفى كمال باشا (أتاتورك فيما بعد).

وكـان الجيـش البريطـانى متفوقـا فـى عـدد أفـراده، وتسـليحه، علـى الجيش التركى الذى كان دونه عددًا وتجهيزًا، سيىء التغذية واللباس، ويحـارب فـى بـلاد معاديـة، فـى حيـن أن الجيـش البريطـانى كـان - فـى ذلك الوقت - ولا يزال يتمتع بثقة سكان البلاد.

وكـانت الجيـوش التركيـة الثلاثـة فـى فلسـطين، غربـى نهـر الأردن وشـرقيه تمـوّن بواسـطة خـط سكة حديد الحجاز الذى يسير من دمشق إلـى مفـرق فـى درعـا، ثـم يتفـرع منـه فرعـان أحدهمـا يمـد القـوات فـى

القطاع الغربى، والآخر القوات الموجودة فى القسم الشرقى، وكان من المهم عسكريا واستراتيجيًا قطع هذه المواصلات قبل شن الهجوم البريطانى وقد عهد بهذه المهمة إلى الأمير فيصل، والجيش الشمالى، وكانت كتيبة سيارة مؤلفة من ٥ آلاف عربى قد خرجت فى اليومين السابقين ونسفت سكة الحديد إلى الشمال والجنوب والغرب فقطعت بذلك خطوط التموين التركية وخطوط التراجع، وبادرت الطائرات البريطانية القليلة المتوافرة إلى قصف قوات الجيش التركى ومراكز البرقيات والتلفونات ومفارق الطرق، وعلى حد تعبير المؤرخ العسكرى «ليدل هارت» كان انتصار اللنبى قد حققته أداتان جديدتان: «الطائرات والعرب».

ولما أخذ الجيش التركى الرابع يتراجع من السلط وعمان لم يستطع الإفادة من السكة الحديد، فاضطر رجاله أن يسيروا على أقدامهم، ويتركوا وراءهم أسلحتهم ومعداتهم، وكان اللنبى واثقًا من الانتصار بدرجة أنه بعد شن الهجوم واجتياز الخطوط التركية بأربع وعشرين ساعة بادر إلى إرسال لورنس بالطائرة حاملاً رسالة جاء فيها:

«أبعث إلى سموكم تحياتى وأطيب تهانى بالإنجاز العظيم الذى حققته قواتكم الباسلة فى درعا، الذى كان له بنتيجة إرباك مواصلات العدو تأثير مهم فى نجاح عملياتنا وبفضل جهودكم المشتركة».

حرب ١٩٤٨ م

أ- قوات المقاومة

ظهرت طلائع المقاومة رسميًا من داخل فلسطين قبل شهور عِدّة من نهاية الانتداب البريطانى لمواجهة التخاذل الذى أبداه الجيش البريطانى وحلفاؤه تجاه المتنافسين المتكالبين على حقوق الشعوب ولا سيما الأمة العربية، ولم يسمح بدخول القوات النظامية العربية إلا فى منتصف ليلة ١٠/ ٥/ ١٩٤٨م. لقد بدأ الشعب الفلسطينى فى أوائل العشرينات نضاله الجماهيرى بعد فترة وجيزة من إعلان وعد "بلفور" البريطانى بحبكةٍ أمريكية راضخة ومتواطئة مع الصهيونية العالمية فى غفلة من الأمة العربية تحت الحكم العثمانى، ومرورًا باتفاقية سايكس بيكو. لقد صمد هذا الشعب الأعزل وهو يجابه بإمكاناته الضئيلة مؤتمرات الساسة الطامعين وطغيان المحتلين وبقيت قواته شاكية السلاح تواجه التهويد والخونة إلى أن أعلن عن ثورته الكبرى فى عام ١٩٣٦م وانعقد مؤتمر لندن وصدر الكتاب الأبيض فى عام ١٩٣٩م، وقرار التقسيم على عام ١٩٤٧م، وما تلاه من رد فعل الجامعة العربية، ثم دخلت فى حرب ١٩٤٨م.

لقد أوجزنا فى الصفحات التالية مراحل هذه الحرب وما آلت إليه. وعلى الرغم من انتهاء القتال لم تستكن المقاومة بل انتظم مقاتلوها فى "جيش التحرير الفلسطينى" عندما وقع العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦م، وازدادت فعاليتها ولم تقنع بدورٍ ثانوى. فكانت أول من تحرك بعد كارثة ١٩٦٧م، ورابطت فصائل منها على نهر الأردن غرب بلدة الكرامة ولم تتم السنة حتى وقعت معركة الكرامة الخالدة

التـى ضحـت فيهـا بمئـة شـهيد ونيـف، ووروا مجتمعيـن فـى أرض المعركة قريبًا من النصب التذكارى للشهداء الأردنيين. لقد أمكن قهر العدو ماديًّا ومعنويًّا لأول مرة، وأجبر على ترك قتلاه المقيدين داخل كـل دبابـة مدمـرة بفضـل مشـاركة وحـدات الإسـناد النظاميـة التابعـة للجيش الأردنـى العظيم فـى الأغـوار، وقـد رابطـت أيضـًا كتـائب كاملـة مـن هذه القـوات علـى قنـاة السـويس - فـى أثنـاء العبـور العظيـم سـنة ١٩٧٣م - جنبًا إلـى جنـب مـع حمـاة العروبـة وجنـد الإسـلام وعلـى رأسـهم الجيش المصـرى المظفـر(١). وقـد وورى شـهداؤها ثـرى مصـر فـى أضرحـة خاصـة بهـم فى أرض المعركة بمحاذاة القناة تغمدهم الله جميعًـا بواسـع رحمتـه وأسـكنهم فسيح جناتـه. "هـذه أمتكـم أمـة واحـدة" ومـن واجـب شـعوبها أن تتخـذ بعضـهـا بعضـًا فـى تنسـيق ثـابت ومحكـم دون أن يمنّ أحدٌ على غيره أو يطالب بأى "اعتذار"(٢).

تـألفت قـوى المقاومـة الفلسـطينية والعربيـة والإسـلامية - قبـل تشـكيل جيش التحرير الفلسطينى - من عناصـر رئيسية ثلاثة هى:

قوة الجهاد المقدس

يرجع تأسيس نواة "الجهاد المقدس" إلى بداية ثورة فلسطين الكبرى المـار ذكرهـا والتـى امتـدت ثـلاث سـنوات حتـى عـام ١٩٣٩م، وقـد دل ذلك على وعى متنام لدى الشعب واستعداده الفطرى لتحمل مزيد من المشاق وتصعيد النضال طوال أربع سنين عصيبة ضحى فيها بثلاثة آلاف شهيد، ولم تَخْبُ جذوة هذه الثورة إلا فى بداية الحـرب العالمية

١- لقد حقق الجيش المصرى انتصارين كبيرين قبل ذلك، الأول فى رأس العش (يوليو ١٩٦٧)، والثانى فى إغراق المدمرة إيلات (أكتوبر ١٩٦٧م).

٢- طالب "متحاور" فى صباح ٢٧/ ٦/ ٩٧ بالاعتذار عن الخسائر فى فلسطين.

الثانيــة بنــاءً علــى توصيــات الأشــقاء العــرب المخدوعيــن بــالوعود الجوفاء.

أعيــد تنظيــم القــوة فــى ســنة ١٩٤٧م، والتحــق بهــا المقــاتلون الفلسـطينيون وسـرعان مـا انضـم إليهـم المتطوعـة العرب، ولقد نشطت جميع فصائلها فى التصدى لعصابتى أرغون وشتيرن فى أواخر عام ١٩٤٧م، وفى قطع طرق القوافل، وحصار القدس الجديدة الغربية من الشـمال، والإسـهام فـى سـقوط مجموعـة مسـتعمرات كفـار عتسـيون والحبيلـة مـن الجنـوب، وإجبـار العدو علـى الهـرب مـن مسـتعمرة النبـى يعقـوب (١) وكذلـك مسـتعمرة عطـاروت - التـى وقعـت قافلتها فى الفخ وتكبـدت أحـد عشـر مقـاتلاً مـن الهاغنـاة - بالإضافـة إلـى مسـتعمرة أخرى بجوار أريحا وتوالى نسف حى المونتفيورى وشارع بن يهودا والوكالـة اليهوديـة والبالسـتين بوسـت وهاسـوليل ومعمـل السـبيرتو، ومساعدة جيش الإنقاذ السورى فى هجومه على مستعمرة حاييم التى سـبق ونجدهـا الجيـش البريطـانى بتـاريخ ٢١/ ١/ ١٩٤٨م. وضحـت القوة فـى هذه السـنة فقط بثمانيـة آلاف شـهيد، لقد اسـتطاعت أن تقمـع المتعـاونين مـع الأعـداء وسماسـرة بيـع الأرضـى، وأن تنفذ إجـراءات تنظيمية تتعلـق بالفصـائل المحليـة مـن أجـل الدفـاع عـن سـبع منطـق عسـكرية تضـم المـدن والقـرى بإشـراف اللجـان القوميـة، تولـت هـذه اللجان أيضًا تصريف الشئون الإدارية وتحصيل الأموال المحدودة من الأهالى وشراء الأسلحة القديمة التى علقت بها رمال الصحراء الليبية، وكذلك الأحذية الجافة التى كانت تدمى الأقدام.

لقد بذلت قوة الجهاد المقدس كل ما تستطيع لتذليل الصعاب وتخطى

١- كنـت قبـل التحـاقى بـالجيش العربـى الأردنـى (مـن ١٩٤٩م إلى ١٩٧٠م) تابعًـا لقـوة الجهاد المقدس التى حـاصرت هـذه المسـتعمرة وأسـقطتها بعـد كفـار عتسـيون بفضـل مسـاندة المدفعيـة الأردنيـة واضطـر العـدو أن يخليها متكبدًا خسائر فاقت خسائرنا.

العقبات فى ظروف استعمارية وتضليلية بالغة التعقيد تحت تأثير القوى الدولية والسيطرة المباشرة "للإمبراطورية" البريطانية طوال ثلاثين عامًا فى فلسطين، حيث توجد القواعد والتحصينيات ومعسكرات الحلفاء التى اكتظت بأكداس التجهيزات القتالية ومعدات الحرب العالمية الثانية، وآل معظمها إلى المستعمرات الصهيونية (تدعى الآن مستوطنات) طوعًا أو قسرًا أى تهديدًا وترغيبًا بكل خبث وخسة، هذا فضلاً عن الكميات المستوردة من تشيكوسلوفاكيا التى شملت الصفقة الأولى منها فقط ٥٠٠٠ رشاش هوشكس ، ٢٠٠ رشاش متوسط، ٢٤٥٠٠ بندقية موزر، ٥٤ مليون طلقة من ضمنها "الدمدم"، ٢٥ طائرة مسر شميت، ومئات أنصاف المزنجرات والسيارات المدرعة والهاونات والمدفعية والطائرات من أمريكا وأوربا اللتين أغدقتا عليها كل هذه الأعتدة بسخاء ماكر لم يسبق له مثيل، وقد أدى ذلك إلى حماية العدو وتمكينه من إشغال مواقع منتخبة بمساعدة مصلحة المساحة وغيرها فى "حكومة فلسطين" التابعة لبريطانيا. المفروض أن تكون "منتدبة" بتكليف من عصبة الأمم، لا محتلة.حصلت قوة الجهاد المقدس فى سنة ١٩٤٨م على تمويل متواضع من الجامعة العربية وكانت تابعة للهيئة العربية العليا برئاسة سماحة مفتى فلسطين، وإمرة القائد العام عبدالقادر الحسينى (من مقر قيادته فى بير زيت/عين سينيا)(١)، وزميل دربه عبد الحليم الجيلانى

١- كنت أحد المرابطين فى هاتين البلدتين ثم انتقلنا إلى قرية بيت محسير واسترحنا أسبوعين بين أهليها ننعم بالحليب الطازج الذى تجلبه لنا ربات البيوت صباحا ويرسلون لنا بالمناسف عصرًا. وكنا نشرف من جبالها على الطريق تل أبيب - القدس وبدأنا معارك بابا الواد الظافرة التى أدت إلى حصار القدس، ومهدت لاسترداد حارة اليهود فقط، ثم توجهنا إلى قالونيا. وعندما سقطت القسطل بجوارنا وهى تتحكم بمشارف القدس كان قائدنا العام عبدالقادر الحسينى فى دمشق يطالب اللجنة العسكرية بالتمويل والتعزيز دون مجيب فعاد مسرعًا فى يوم٦/ ٤/ ١٩٤٨م ومعه٨٠٠ جنيه فلسطينى من الحاج أمين شخصيًا، وليس٨٠٠ -

(قائد منطقة جنوب القدس الذى سارع إلى نجدته مرة فى معركة بنى نعيم بالخليل ١٩٣٦م ومرة فى معركة القسطل سنة ١٩٤٨م وكان فى الأولى جريحًا وفى الأخرى شهيدًا بارًّا)،

وبهجت أبو غربية (مسئول الدفاع عن القدس)، وحسن سلامة (قائد

= متطوع كما قيل. واسترد القسطل بمساعدة النجدات الشعبية التى هرعت من القدس والخليل والقرى، ولقى ربه شهيدًا فدبت الفوضى وتجمهر المجاهدون لتشييعه وخلت منهم القسطل فعاد إليها العدو يسانده تل من السيارات المدرعة، ثم توجه العدو إلى قالونيا واستولى عليها بسهولة أيضًا فى يوم ١١/ ٤/ ١٩٤٨م. وكان بها مستودع متفجرات جلبها متطوعة القوات الخفيفة التابعة للجامعة العربية واستعملنا قسمًا منها فى تدمير أطراف مستعمرة موتزا. المقابلة لنا فى وضح النهار حيث كان يتردد عليها البريطانيون بدباباتهم ويطلقون القذائف باتجاهنا تملقًا للصهاينة فنصوب نيران ما يتوافر لدينا من أسلحة على الفتحات والمنافذ. استشهد حين انسحابنا من قالونيا متطوع مصرى صغير السن مثلى ظل يرافقنى ولا سيما أنى من مواليد القاهرة، ولكنى ـ أعرف له عنوانا وإنما اسمه الأول "أقسم" ولطالما أوصيته أن يقتفى أثرى لأنه أصيب قبل ذلك بطلقة خدشت "النمرة" أثناء تقدمه منحنيا مع أحد أبناء القرية الذى أصيب هو الآخر إصابة سطحية فى أرنبة أنفه وأحرقت شاربيه الكثيفين! وكنا نتندر بهذه الإصابات الجانبية العجيبة. إن السبب فى عدم ملازمة "أقسم" لى عبر مسالك جبلية خبرتها جيدًا كان شدة حماسته وكثرة إطلاقة النار والحركة تغطية لجندى أول أردنى متقاعد كان مصابًا هو الآخر فى ساقه، ورغم عرجه استطاع أن يلحق بنا، ولكن خط انسحاب أقسم ابتعد وسقطت عليه إحدى قنابل الهاون المنهمرة كالمطر من الجبال المحيطة بالقسطل - رحمة - وتمنيت لو عرفت أهله فواسيتهم. أما نحن فسارعنا للالتحاق بالنجدات المتوجهة إلى معركة رامات راحيل جنوب القدس واقتحمنا اطرافها فى وضح النهار أيضا بسيارات مصفحة محليًا استولينا عليها من العدو وكنت ممتطيًا إحداها وأصبت بشظية دمدم استقرت فى لوحة الكتف دون أن تلحظها ممرضة لعوب غير مكترثة فى مستشفى الفرنساوى فى بيت لحم، و ـ أدر فى حينه عن هذه الشظية طوال عشرين عامًا، إلا حين تصويرى بالأشعة السينية من أجل العمل فى السعودية بعد التقاعد، وكان ذلك فى عيادة رئيس الجراحين سابقًا فى الجيش الأردنى (د.كارلوس) الذى أشار بترك الشظية على حالها طالما بقيت ثابتة فى مكانها. أما رواتبنا فكانت تصرف من الجامعة العربية. ولدى حل قوة الجهاد المقدس وقبل التحاقنا بكتيبته ١١ النضال (شمال) وكتيبة ١٢ جهاد (جنوب) التابعتين للجيش العربى الأردنى خصصوا لنا ثلاثة أشهر مكافآة دفعة واحدة لنا، ولكن أحدَ المسئولين أخذها لنفسه فاكتشفت ذلك وكنت الوحيد الذى حصل على راتب شهر منها وسلمته كالعادة إلى والدتى السيدة المصرية التى رافقتنا وتحملت شظف العيش وزرعت فينا حب الوطن. مرددة مسامعنا: الفردوس المفقود، الحجاز بلد المقدسات، مصر أم الدنيا...إلخ.

منطقة يافا)، وإبراهيم أبو ديَّة (صوريف/بيت لحم) وغيرهم كثيرون. ولطالما حذر القادة فى الميدان - فلسطنيون وعرب - من مغبة التقاعس عن أداء الواجب من قبل الأشقاء ولو فى مكاتب الإدارة وهذا أضعف الإيمان، والشح على "المقاومة" فى ساحات القتال التى تبذل المال والرجال معًا. ولطالما أوصوهم بالاطلاع عن كثب على الموقف الحربى العام وعدم التشدق - سواء فى السهرات أو فى الصحف - عن تحركات الجيوش النظامية فقط لأنها ستعيد اللاجئين إلى موطنهم والحق إلى نصابه عندما تحين ساعة الجد التى امتدت أيامًا وسنواتٍ وأصبحت عقودًا من الزمان.

لقد تهكموا على المقاومة ولم يفقهوا أنه فى عناصرها قوات غير نظامية مدربة تدريبًا خاصًا وتمتلك زمام المبادرة. وهى التى تستطيع أن تستعمل أى سلاح رادع، وأن تطبق مبدأ اضرب واهرب إذا تتطلب الموقف ذلك دون أن تترك أثرًا يقتفيه الجيش البريطانى. وقد ثبت لهم بعد فوات الآوان أن تلك الساعات والدقائق كانت عوامل حاسمة فى توجيه المعركة وكسبها بأقل الخسائر فى جانبنا وأفدحها فى جانب العدو. ولا أبلغ من قولة عمرو بن العاص فاتح فلسطين الذى بدأ حديثه مع الأرطبون: نطلب الموت فتوهب لنا الحياة (بقية الحديث مثبت فى مؤلفاتى عن جند الإسلام فى العصر النبوى ثم الراشدى). إن عدوا من النوع المادى الجشع يقيم الآن مجتمعات تتقن فنون التسول وتستمرىء اغتصاب حقوق الغير، ولكن لديه حساسية مفرطة إذا نزلت الخسائر فى صفوفه، ولم يتحملها عنه مرتزقته والمتواطئون معه.

إنه يجزع أشد الجزع إذا تعرّض نسله للنقصان حين ممارسة السرقة ومواصلة العدوان، لا سيما إذا خاب فى لعبة الأمم والعض على التواجد وانقلبت ضده الموازين ولم يبادر الضالعون معه إلى إنقاذه فى الميدان وحمايته فى المحافل الدولية. وهو لا يتوقع أن تتوقف عنه أكبر المساعدات العالمية وأضخم المعونات الدولية التى اعتاد أن يحصل عليها بوسائله الابتزازية فى شكل هبات وتعويضات لم يسبق لها مثيل تارة بالترغيب وتارةً بالوعيد فى كل سنة وفى كل مناسبة يفتعلها.

جيش الإنقاذ / التحرير:

أنشىء هذا الجيش فى معسكرات قطنا جنوب غرب دمشق بمبادرة من الجامعة العربية فى أكتوبر ١٩٤٧م وبإمرة القائد الميدانى فوزى القاوقجى(١)، وتشكل من فوج (كتيبة) اليرموك الأول ثم الثانى، وفوج أجنادين، وفوج حطين، وفوج الحسين والفوج اللبنانى، وفوج جبل العرب والوحدة العراقية والوحدة السورية/ الحموية والوحدة الأردنية والمفرزة اليوغسلافية والمجموعتين الشركسية واليمانية بالإضافة إلى بطارية المدفعية. دخل هذا الجيش شمال فلسطين وقاتل سنة كاملة فى وجه قوات عدة تابعة للأعداء تفوقه فى الإمكانات أضعافا مضاعفة، وقدم الكثير من الشهداء فى معارك المزيرعة والشجرة وترشيحا والجش.

وقعت عمليات ثلاث كبرى "باروش وديكل وجنين" قذف فيها العدو

١- تلقيت تدريبى فى صفوف هذا الجيش، وألقى علينا هذا القائد العظيم محاضرة قومية. وقد سبق له أن هب لنجدةفلسطين فى ثورتها.

بمعظم قواته إلى الشمال فى خمسة ألوية كبيرة "الكسندرونى - جولانى - كرملى - شيفع - عوديد" وكان يؤازرها الاستعمار، وتدعمها المستعمرات فى الجليل كله و"الغادناع" من الفتيان والفتيات بدأت القتال من اليوم التاسع من يوليو حتى الثامن عشر منه، بعد نهاية الهدنة الأولى، أى فى الأيام العشرة الأولى من الجولة الثانية من حرب ١٩٤٨م.

كانت عملية باروش تهدف إلى إزاحة خطر الجيش السورى النظامى الذى احتل مستعمرة "مشمار هايردن" قرب بحيرة الحولة، من خلال عملية التفاف حول المستعمرة من الشمال والجنوب وصولاً إلى نقطة "الجمرك" على جسر طريق يعقوب لتطويق هذا الجيش وقطع الإمداد عنه من القنيطرة. وقد كلفت بهذه العملية كتائبُ من لوائى كرملى وعوديد، إلى جانب مفرزة هندسية لإقامة جسور على نهر الأردن. إلا أن الجيش السورى تصدى للعدو وأفشل خطته، وبقيت "مشمار هايردن" بيد السوريين إلى أن حانت مفاوضات الهدنة.

أما قوات جيش الإنقاذ فكانت تشغل منطقة واسعة من قلب الجليل فى الناصرة ولوبيا والشجرة إلى الحدود اللبنانية على استدارة قوس يقارب الستين كيلومترًا. وانتشر جزءٌ منها بأعداد قليلة بين مئة ومئتى رجل من كل قرية، وكان جسم القوة الرئيسى يحاول استعادة قرية "الشجرة" من العدو.

وفى عملية "ديكل" حاول العدو تقطيع هذا الجيش المتفرق فاحتل قرية "الكابرى" شرق مستعمرة "نهاريا" ودخل "البروة" إلى الجنوب منها ثم "شفا عمرو". تحركت قواته على خطين متوازيين نحو الشرق

من نهاريا - الكابرى إلى "ترشيحا" ومن عكا - البروة إلى "مجد الكروم" والرامة وانتهاءً بصفد على أعلى جبال الجليل الشمالية مع ضغوط عسكرية متزايدة على الشجرة ولوبيا والناصرة لتثبيت قوات القاوقجى ريثما يكتمل إغلاق الحدود فى الشمال.

وتحركت قوات إضافية من "شفا عمرو" نحو الناصرة شرقًا يوم ١٤/ ٧/ ١٩٤٨م فمرت بقريتى "نهلال والمجيدل" على حين زحفت قوات مدرعة أخرى من الشمال فاحتلت قرية "صفورية" المعروفة ببأسها. وحين إتمام الطوق حول الناصرة ليلة ١٦/ ٧ /١٩٤٨م أصيب الأهلون بالهلع فهرب بعضهم عبر الجبال إلى الشرق. أما قوات جيش الإنقاذ فقد خشيت من إحكام الحصار إلى الشمال قرب الحدود اللبنانية فانسحبت فى مسيرة مضنية على الأقدام لعدم توافر سيارات النقل، وقطعت ما يقرب من الثمانين كيلومترًا حتى وصلت منهكة إلى قرية "عيترون" فى داخل الأراضى اللبنانية، وقد استشهد منها عدد من الضباط العراقيين والفلسطينيين واليمانيين والسوريين. واتجهت بعد إعادة التنظيم إلى سوريا ثم حُلّت فى مايو ١٩٤٨م، وهو الشهر الذى حلت فيه أيضًا قوة الجهاد المقدس.

القوات الخفيفة / كتائب المتطوعة:

أبرقت جماعة الإخوان المسلمين لحكومة النقراشى طالبين السماح للمقاتلين المتطوعين بدخول فلسطين فى مطلع سنة ١٩٤٨م بعد أن تلقوا التدريب التأسيسى فى معسكر "هايك ستيب" قرب القاهرة، ولما قوبل طلبهم بالرفض قرروا إرسال مجموعة سرية عبر سيناء من متطوعى منطقة الدقهلية، ثم تبعها سريتان تشكلتا من متطوعى الإسماعيلية ومنطقة القناة. وفيما بعد سمحت السلطات للضباط

والوطنيين الراغبين فى الإسهام فى القتال مع المتطوعة أن يدخلوا فلسطين وهم محالون على التقاعد ضمن "قوات خفيفة" شكلتها الجامعة العربية فى ثلاث كتائب. وكان على رأسهم أحمد عبدالعزيز وكمال الدين حسين وحسن فهمى الذين صُرِّحَ لهم بأخذ الأسلحة والذخائر من مخازن الجيش المصرى.

ولقد دوَّن ضباط الاتصال محمود الصباغ فى مذكراته المنشورة بصحيفة "المسلمون" ٣٠/ ٤/ ١٩٨٨م التفاصيل المعتلقة بالتعبئة التى باشر بها الحاج أمين الحسينى وهو فى القاهرة لاجئًا سياسيًّا، والخدمات الوطنية التى تلقاها هو وابن أخيه عبد القادر الحسينى طوال فترة الاستعداد منذ ١٩٤٦م. وكان عبدالقادر ومحمود جارين فى حلمية الزيتون. وذكر ضابط الاتصال كيف وصلت القوة إلى العريش قبل وصول الخيام، فأعارهم الجيش المصرى بعضًا منها، وعندما أعادوها أخبرهم العميد "محمد نجيب" بأن الأوتاد ناقصة رغم أنهم أحصوها، فجمعوا غيرها من الصحراء، وقد تعجبوا منه ذلك وهو الذى زارهم فى اليوم السابق وأهداهم برتقالاً يافاويًّا، وحكى لهم قصة الأعرابى.

نشبت باكورة المعارك فى ١٤/ ٤/ ١٩٤٨م حول مستعمرة دير البلح حيث تقدم المقاتلون عبر حقول الألغام ودمروا التحصينيات الأرضية وجزءًا من البرج ورشقوا أفراد العدو بالقنابل اليدوية، حتى استغاثت المستعمرة بالجيش البريطانى الذى سارع بإرسال وحدة مدرعة يعلو أول دبابة منها علم أبيض وفضت الاشتباك.

وفى القاهرة أعدت دفعة ثالثة تعادل كتيبة وزودت بالسلاح والعتاد.

تحركت هذه الكتيبة من ميدان الأوبرا فى شهر مارس ١٩٤٨م، واستقلت القطار إلى بورسعيد ثم الباخرة إلى بيروت ووصلت إلى معسكرات تدريب قطنا المار ذكرها والتى شيدها الجيش الفرنسى إبان الاحتلال فى (الهضبة السورية/ جبال الشيخ فى الجولان) حيث كانت تنتظرهم وحدة من الجيش السورى مخصصة لاستقبال المتطوعين من الأقطار العربية(١) والإسلامية. مكثت الكتيبة شهرًا مارست فيه فنون المشاة والمدفعية والمغاوير على أيدى مدربين سوريين وضباط يوغسلاف متمرسين من الحرب العالمية الثانية، ثم توجهت إلى جنوب فلسطين عبر مدينة عمّان ووداى عربة والعقبة واخترقت سيناء إلى غزة حيث نزلت بجوار القاعدة الجوية. وكانت ليلة طوارىء نظفوا فيها الأفراد أسلحتهم وكمنوا للعدو المتقدم نحوهم من المستعمرة فى ١٨ سيارة مدرعة ظنًا منهم أنهم سيجهزون على هذه الكتيبة المجهدة فى ليلة وصولها. ولكن العدو تكبد خسائر كثيرة واندحر تاركًا بعض الآليات غنيمة، وجاء الأهلون يهنئون جند الإسلام على هذا الفوز.

ترأس عسكريون نظاميون هذه الكتائب، وهم الضباط المصريون المار ذكرهم الذين أحالوا أنفسهم على التقاعد وجلبوا معهم كل ما تسلموه من مخازن الجيش المصرى. وعُيِّن "المقدَّم" أحمد عبدالعزيز قائدًا للقوات الخفيفة، و"النقيب" عبدالمنعم عبدالرءوف أركان حرب، والملازم معروف الحضرى مساعدًا للعمليات، والنقيب كمال الدين

١-ومن الفلبين أيضًا حيث شاهدت بين صفوفنا طالبًا فلبينيًا ناطقًا بالعربية وكان مهذبًا بطبعه تجاهنا وشديد البأس ضد الأعداء.

حسين قائدًا لمدفعية الهاوزر عيار ٣.٧ بوصة، وآخرون.

بدأت معركة دير البلح الثانية مع الضوء الأول واستعر أوارها حتى الظهر واستشهد ٤٣ متطوعًا وجرح معروف الخضرى على الأسلاك. وقد أمكن الانسحاب إلى الوادى وتقرر ضرب حصار حول التحصينيات، فبدأت حرب المستعمرات بجنوب فلسطين. صدرت الأوامر بمحاولة الاستيلاء على مستعمرة كفار داروم (١) عندما رفعت خداعًا العلم الأبيض. عرض أحد الأعراب خدماته على قائد الفصيلة ولكنه اختفى فى مرحلة التقدم.

وفتحت النيران فجأة واستشهد وجرح عدد من المتطوعين نتيجة غدر هذا الأعرابى الذى أمكن العثور عليه واعترف أنه من سكان المستعمرة وتزوج صهيونية وله أولاد، وكان يكلف بجمع الأخبار يوميًا وعندما صحا ضميره، عرض أن يحرك قافلة مؤن وذخائر من المستعمرة لاصطيادها تكفيرًا عن خيانته، فاتصل لاسلكيًا مع المستعمرة وأرسلت فعلاً هذه القافلة فأمطرتها الفصيلة بوابل من النيران وهرب الصهاينة تاركين القافلة غنيمة وبجانبها قتلاهم وجرحاهم. قرر قائد القوات الخفيفة "المقدم" أحمد عبدالعزيز أن تتحرك الكتائب شمالاً ضمن القوات الخفيفة التابعة للجامعة العربية بعد دخول الجيش المصرى فى ١٥/ ٥/ ١٩٤٨م، فأطلقت ستائر دخانية لتعمية كل مستعمرة تمر عليها، واستطاعت الوصول إلى العوجا. ثم عاودت سيرها إلى عسلوج وبئر السبع والظاهرية

١- ورد ذكر "الداروم" من أرض فلسطين فى توجيهات الرسول صلى ا عليه وسلم قبيل وفاته لجيش أسامة بن زيد. وقد أشرت إلى ذلك فى الجزء الأول من كتابى الأول "جند الإسلام" فى العصر النبوى.

ووصلت إلى مقر

قيادة القوات الخفيفة فى بيت لحم، ومن هناك باشرت يوميًا ضرب ضواحى القدس المحتلة ولا سيما مستعمرة رامات راحيل وتل بيوت بمدافع الهاوزر. وعسكرت مفرزة بقيادة النقيب محمود عبده فى مبنى المدرسة الثانوية بصور باهر المجاورة لمواقعنا (الجهاد المقدس) فى جبل المكبر الذى سمى بهذا الاسم نسبة إلى الصحابى بلال عندما طلب منه جند الإسلام فى حملة عمرو بن العاص أن يؤذّن لهم وهو على هذا الجبل كى يذكّرهم بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لقد لحق برجال المقاومة فى فلسطين متطوعون آخرون تابعون للإخوان المسلمين، قدموا من الأردن بقيادة عبد اللطيف أبو قورة، ومن سوريا بقيادة مصطفى السباعى، ومن العراق بزعامة الشيخ محمود الصواف، ومن تركيا بقيادة الجنرال رفعت أتلخان، ومن إيران فدائيان إسلامى بقيادة نواب صفوى، وكذلك من البلقان وأندونسيا. أما من داخل فلسطين فكان للإخوان المسلمين أيضًا مجاهدون محليون منذ سنة ١٩٣٦م، وكانوا على اتصال وثيق بعز الدين القسام. ثم انضموا إلى قوات المقاومة الرسمية سنة ١٩٤٨م ومعهم بقية المتطوعة العرب المقيمون فى المدن مثل سكان حارة المغاربة فى القدس من السودانيين وغيرهم. لقد قدّمت الشعوب عن طيب خاطر القوافل المتتابعة من الشهداء الأبرار وما زالوا، تغمدهم الله جميعًا بواسع رحمته وأسكنهم فسيح جناته.

ب- القوات النظامية

دخلت قوىً مستقلة من عدة جيوش عربية إلى فلسطين فى

اليوم المحدد لها (١٥/ ٥/ ١٩٤٨م)، على النحو التالى:

الجيش المصرى

أعلن عن تشكيل قوة من الجيش المصرى لدخول فلسطين بقرار مفاجىء، بعد طول تردد من قبل حكومة النقراشى. وعُين اللواء أحمد المواوى قائدًا و"العقيد" محمد نجيب مساعدًا، ثم حل اللواء أحمد فؤاد صادق محل المواوى وكانت نواة هذه القوة فى البداية مؤلفة من ثلاث كتائب من المشاة ووحدة مدرعة ولواء مدفعية، واجتازت الحدود إلى جنوب فلسطين على محورين. تقدم القسم الأول من العريش شمالاً بمحاذاة الساحل باتجاه مدينة يافا. وتوغل القسم الثانى من أبى عجيلة عبر النقب ووصل إلى الفالوجة ثم اتجهت طلائعة إلى الخليل وبيت لحم، ونشبت معارك شرسة وأمكنه الاستيلاء على مستعمرة "دير سنيد" . وقاد "العميد" محمد نجيب عملية ناجحة أخرى احتل فيها مستعمرة نيتانيم وأسر مئتين من مقاتليها.

أنشئت قاعدة بحرية على شاطىء العريش رست فيها كاسحتا ألغام وخمس سفن صغيرة وفرقاطة. وأقيمت جوية ربضت فيها ١٩ طائرة حربية تولت مهام المسانده الجوية. ورغم قلة عددها نفذت عمليات جريئة على خط المواجهة وفى العمق حتى تل أبيب، ولاسيما ما قام به النسر الأسطورة الطيار المقاتل "أبو زيد" الذى كان مجرد ظهوره فى مقدمة المقاتلات فوق ساحة المعركة يبعث على الاطمئنان والثقة بين الواحدات المرابطة على الأرض. وقد حدثنا الجند كيف كانت تفر مذعورة أمامه طائرات العدو فيلاحقها بمفرده ويحكم فيها إصاباته.

إنه على الرغم من اقتراب القوة المصرية من يافا، ووصول القوة

الأردنيـة إلـى اللـد والرملـة وتجاوزهـا غربًـا باتجـاه تـل أبيـب، وإشـراف القـوة العراقيـة علـى البحـر الأبيـض المتوسـط فـى مواقـع شمالية لا تبعد سـوى اثنـى عشـر كيلومـترًا عـن السـاحل، وانفتـاح الطريـق أمـام كافـة التعزيـزات، وتشـكيل حكومـة عمـوم فلسـطين فـى وجـه خلافـات علنيـة شـديدة، تحولـت فجـأة الـدول العربيـة وتقبلـت هدنـة الأسـابيع الأربعـة فـى السـاعة السادسـة صبـاح الجمعـة الموافـق ١١/ ٦/ ١٩٤٨م دون أن تحاول رفضها أو تعديل شروطها المجحفة أو تجاوزها كما كان يفعل العدو باستمرار.

وكـان هـذا القبـول مثـار دهشـة الجميـع ولا سـيما السـاسـة مـن أمثـال فـارس الخـورى وكذلـك العسـكريين قـادة القـوات الميدانيـة الذيـن كـانوا يتوقعـون بـدلاً مـن ذلـك أن تصـل إليهم التعزيـزات الرسـمية والشـعبية المتأهبـة فـى أنحـاء فلسـطين والأقطـار العربيـة والإسـلامية والصديقـة وذوى الضمـائر الحيـة، والمباشـرة بالتنسـيق المطلـوب. وهنـا سـارع الأعـداء إلـى لـم شـعثهم واسـتثمروا كـل مـا لاح لهـم مـن فـوز ووحـدوا جهودهـم، فـى حيـن بعـثرت الجهـود العربيـة ولـم تتوحـد اللهـم إلا فـى مواقف سلبية تفرض عليهم حسبما تدور بهم الدوائر. لقد تعامل معنا الأعـداء "بالجملـة" طالمـا أدى ذلـك إلـى تحقيـق مـآربهم دفعـة واحـدة، ثـم انفردوا بنا واحدًا تلو الآخر. وكانت الصحافة تُطالعنا كل يوم بالعبارة الشهيرة: (تراهم جمعًا وقلوبهم شتى).

أعيـد فـى خـلال هـذه الهدنـة الأولـى تنظيـم القـوة المصريـة، وقسـمت جبهتهـا إلـى قطاعـات ومنطقـة خطـوط مواصـلات وقـاعدة أماميـة. خُصـص لقطـاع أسـدود – نيتسـانيم اللـوء الثـانى المشـاة ومدفعيـة ميدان،

ولقطاع المجدل اللواء الرابع المشاة ومدفعية ميدان وسريتين من قوة الجيش السعودى، ولقطاع عراق سويدان – الفولوجا – عراقه المنشية أربع كتائب من المشاة وسرية سودانية ومدفعية ميدان، ولقطاع بيت جبرين – الخليل – بيت لحم قوات الجامعة العربية الخفيفة بقيادة "المقدم" أحمد عبدالعزيز وقسمٌ من التكيبة السادسة المشاة، ولقطاع غزة ومنطقة خطوط المواصلات كتيبة وثلاث سرايا من قوة الجيش السعودى ومدفعية ميدان.

إن استطالة خطوط المواصلات المصرية دون تعزيز ملموس فى مواجهة حشود العدو المعززة بمرتزقة ومسرحين دخلوا فلسطين بكامل أسلحتهم وأعتدتهم قد مكنه بفضل انعدام التنسيق بين الجيوش العربية، أن يسحب من جبهتيه الوسطى والشمالية ما شاء من قوات احتاجها لجس نبض أى من هذه القطاعات المنتشرة على مواقع متباعدة تفتقر إلى العمق وتمثل نموذجًا مجسدًا للدفاع الخطى. لقد استطاع العدو توجيه هجماته المركزة وتطبيق نظرية طالما نادى بها النقيب البريطانى المتقاعد "هارت" فى الثلاثينيات ولم يأبه بها قومه البريطانيون، وإنما اكتشف فعاليتها – لسخرية القدر – أعداؤهم الألمان الذين طبقوها بحزم فى حروبهم الخاطفة المشهورة باسم Blitzcrieg. وهى تعتمد على العمليات العسكرية غير المباشرة وراء الخطوط. وقد أعرب "هارت" عن حسرته على ما آلت إليه نظريته هذه فى الكثير من مؤلفاته فى أعقاب التفاف الألمان على خط ماجينو وما تبع ذلك من اكتساح فرنسا واندحار البريطانيين أنفسهم حتى

دنكرك وإلقائهم فى البحر. وعلى كل حال فهو القائل بأن إسرائيل برج فى القلعة "Bastion" وقد خان بذلك ضميره.

لقد استهدفت المرحلة الأولى من تلك الهجمات المركزة الانفراد بالقوة المصرية دون غيرها ودق إسفين بين عراقه سويدان وبيت جبرين - بعد مهاجمة بيت لاهيا وبيت حانون شمال غزة مباشرة - والالتفاف فى حركة كماشة واسعة جنوب المؤخرة. واستهدفت المرحلة الثانية احتلال قطاع المجدل، ثم القيام بحركة التفاف أخرى فى المرحلة الثالثة لعزل غزة جنوبًا وتخريب السكة الحديدية والطريق الرئيسى والقواعد الإدارية. وقد بدأ تنفيذ هذا المخطط الكبير فى فجر يوم ١٦/ ١٠/ ١٩٤٨م فى أعقاب نجاح الضربة الجوية الكبرى فى مساء يوم ١٥/ ١٠/ ١٩٤٨م على القاعدة الجوية المصرية الوحيدة فى العريش، حيث كانت مطارات القناة بيد البريطانيين.

استطاع اللواء الثانى المصرى أن يكسر الطوق ويشق طريقا (١) عسكريًا موازيًا للساحل ويتصل بقاعدة غزة من المجدل وأسدود. وتولت الوحدات المرابطة فى قطاع الفالوجا مهام الدفاع عن عراق سويدان، وصدت بنجاح تام جميع الهجمات الشرسة سبع مرات متتالية. وتميزت الهجمة الأخيرة التى شنها العدو ضدهم قبل غروب شمس ١٠/ ١٠/ ١٩٤٨م بكثرة الطيارين المرتزقة واشتداد غاراته

١- عرفنا مقدار الجهود العظيمة التى بذلت فى تعبيد هذه الطرق وكيفية استعمال معدات تغطية الدروب الطينية وتثبيت الرمال المتحركة من الجنود المصريين الذين إلتحقوا بنا فى بيت لحم وخاضوا معنا معركة رامات راحيل.

الجوية ورماياته الكثيفة فى أعظم حشد من المدافع الميدانية التى آلت إليه من معسكرات الحلفاء فى فلسطين، إلى جانب ما ذكرنا من أنواع الأسلحة التشكوسلافية الحديثة التى شحنها جوًّا رعايا أمريكيون وفقا لمذكرة قدمتها الاستخبارات إلى ترومان ولكنه أغفلها عمدًا.

صمد الأبطال المصريون ومعهم السودانيون والفلسطينيون متمسكين بمواقع دفاعاتهم الدائرية كاملة، وكبدوا الصهاينة خسائر فادحة. لقد شكلوا فى الفالوجا حامية قوية الشكيمة بقيادة العميد السيد طه (ولقبه البيه طه أو الضبع الأسود)، وأركان حربه (الرائد) جمال عبدالناصر بناءً على أمر صدر من الفريق فؤاد صادق للاحتفاظ بالمواقع حتى آخر طلقة وآخر رجل، وأفاده قائد الحامية بأن ما لديه من التموين(١) يكفى لخمسة أيام فقط. ورغم ذلك استمر الدفاع مدة ١٢٠ يومًا حتى تسنى لهؤلاء الأبطال أن يخرجوا سالمين إلى غزة موفورى الكرامة بكامل أسلحتهم.

صحيح أن العدو يئس من احتلال هذا الجيب بالقوة العسكرية وطال الحصار الذى ضربه حول الفالوجة وتحول فى غضون ذلك إلى فك الحصار الذى ضربه الجيش المصرى بدوره على مستعمراته هو. ولكن القوى العربية الأخرى القادمة من الشمال لم تهبَّ لنجدته، بل توقفت فى بِت ساحور(٢) وبيت لحم ولم تلتحم مع قوة شقيقة أبية

١- كنا فى موقع قرية إذنا بالخليل نساهم فى إيصال الإمدادات لهذه الحامية وتعود الدواب تباعًا وهى محملة بعثات رشاشات الهوشكس التشيكية المطورة التى خلفها العدو. وكان البطل (النقيب) معروف الخضرى يوجه بعضًا من هذه القوافل وقد أسر فى إحداها. وأذكر أنه كلفنى أن أجمع له فى كيس عسكرى لوزًا فاخرًا من تحت مستعمرة رامات راحيل ففعلت وسر بها كثيرًا. كما كمثرى ناضجة جدًّا لرفيقه القائد الفلسطينى عبدالحليم الجيلانى فى كوفيتى العسكرية.

٢- شاهدت معسكراتهم بجوار هذه القرية.

تناسوها فى الفالوجة، أو تعزز على الأقل القرى الصامدة حولها وتؤازر المدافعين عنها بغيرهم من المقاتليين العرب الذين بدأوا يتخلون عن مواقع استراتيجية الواحد تلو الآخر.

لقد أتيح للعدو مواصلة اختراقاته بسهولة فيما بين تبة الخيش والحليقات، وفصَل المجدل ثم بيت جبريل عن الخليل ولم يبق فى الجنوب سوى قطاعات معزولة فى رفح، والعوجا، والعسلوج، وفى الشمال مناطق الخليل وبيت لحم. وفى مساء ٢٢/ ١٢/ ١٩٤٨م استهل العدو هجومه الشتوى بضربة جوية أخرى على مطار العريش حقق بها السيطرة الجوية ووجه اندفاعًا ثانويًا مخادعًا إلى الشمال من رفح (معركة التبة ٨٦) لم يلحظ فى حينه أن هجومه الرئيسى كان عبارة عن حركة تطويق واسعة من العسلوج وحتى العوجة على طريق بئر السبع جنوب الحدود المصرية حيث نشب قتال عنيف مع الكتيبة الخامسة المعزولة. نفذت قوات العدو الخاصة عمليات قطع ال مواصلات البرية والحديدية فيما بين غزة وبئر العبد على مسافة ٨٠ كم من قناة السويس فى ٤٨ موضعًا متفرقا ثم نقلت المعركة عبر سيناء باتجاه أبى عجيله على المحور الأوسط.

لدى اجتياز دبابات العدو الحدود المصرية، تحرَّج الموقف وتوصل اللواء فؤاد صادق إلى استنتاج سليم تأكد فيه أن قوات العدو بدورها وصلت إلى قدر من الإنهاك يفوق ما واجهته القوة المصرية. فبدأت قيادته تعمل على استعادة التوازن لدرء هذا الخطر بكل حزم بعد زوال تأثير المفاجأة. زُودت قاعدة السويس الجوية بمقاتلات حديثة واستعادت تفوقها الجوى ودحرت الرتل المدرع المتجه إلى أبى

عجيلـة، وصُـدَّت القـوات المهاجمـة لقطـاع غـزة - رفـح. اضطـرت بريطانيـا بموجـب معـاهدة ١٩٣٦م أن توعـز بانسـحاب قـوات العدو، فعادت وراء الحدود فى مساء ٣١/ ١٢/ ١٩٤٨م.

ونتيجة لهذه العوامل العسكرية والسياسية لم يعمد العدو إلى احتلال أبـى عجيلـة وإنمـا هـاجم قطـاع رفـح علـى الحـدود المصريـة الفلسطينية بخمسـة ألويـة مقاتلـة دفعـة واحـدة. وسـبق ذلـك قصـفٌ جـوى مركـز فـى ٤٢٣ طلعـة (٢٢٦ طنًّـا مـن القنـابل. لقـد تبودلـت المواقـع عـدة مـرات وصمـد الجيـش المصـرى فـى تعـاون وثيـق بيـن قواتـه البريـة والجويـة حتى حلول الهدنة الثانية بتاريخ ١٧/ ١/ ١٩٤٩م.

الجيش السعودى:

كـان الجيـش السـعودى فـى طـور التكويـن والتنظيـم بـإمرة الأمـير منصـور بن عبدالعزيز وزير الدفاع. وقد خصص عدة وحدات لدخول فلسـطين مؤلفـة مـن ١٥٠٠ مقـاتل بقيـادة العقيـد عبـد اللـه الكـردى والضبـاط إبراهيـم الطاسـان ورشـيد البـلاع وتركـى الرشـد وأميـن شـاكر وعبدالهادى محمود والدكتور أحمد شلبى.

تحركـت هـذه القـوات مـن مطـار جـدة إلـى مطـار القـاهرة، ونقلـت معداتها بحرًا إلى السويس ثم اتجهت إلى سيناء وخاضت فيها معارك منفردة ومشتركة مع قوة الجيش المصرى فى أسدود ونيتسانيم وبيت عفـة وبـيرون إسـحاق. وقدمـت مـن الشـهداء ٤٣ جنديًّـا وضـابط صـف بالإضـافـة إلـى الضبـاط: عبدالرحمـن الشـاهر وعبداللـه الطاسـان وأحمـد النـاصر. وحـاز عـدة أفـراد مـن القـوة علـى أوسـمة الشـجاعة مـن القيـادة

العليا المصرية تقديرًا لرباطة جأشهم ودفاعهم المجيد، جنبًا إلى جنب مع وحدات مصرية وسودانية في معارك عراق سويدان، وإعاقتهم لتقدم العدو وتمسكهم بمواقع الحليقات طوال الفترة المحددة وفقًا للخطة المرسومة التي أملتها الظروف الميدانية.

الجيش الأردن:

في مساء ١٤/ ٥/ ١٩٤٨م تحرك جسم الفرقة الأولى المشكلة حديثًا، وانتشرت ألويتها(١) المشاة في منطقة القدس وقطاع رام الله بقيادة "أستون"، وفي منطقة نابلس بقياطة "غولدي"، ثم عاد اللواء المتمركز في منطقة نابلس إلى منطقة القدس عندما حلت محله قوة عراقية.

تمركز اللواء الثالث في شرق مدينة القدس وشمالها واتجهت سرية من الكتيبة الرابعة نحو موقع "باب الواد" إلى جانب "الجهاد المقدس" ومناضلي(٢) هارون بن جازي وعشيرة الحويطات المرابطين بالمضيق لقطع إمدادت العدو. تحولت المناوشات إلى قتال منظم

وانتقلت بقية سرايا الكتيبة الرابعة ثم الكتيبة الثانية لمحاصرة العدو غرب القدس بالقرب من باب الواد المرابط حوله رجال "المقاومة". نفدت الإمدادات لدى السكان الصهانية واستعدوا للاستسلام فتقاعس القادة البريطانيون وحالوا دون تقدم الجنود الأردنيين في الوقت

١- كان يطلق عليها حاميات، حيث رابط عدد منها في فلسطين مع الجيش البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية وهي تعد الأكثر اطلاعًا على المعلومات والتضاريس والمواقع.

٢- يطلق بدو شرق الأردن تسمية "مناضلية" على المجاهدين في فلسطين الذين يقدرونهم تضحياتهم العظيمة.

المناسب بحجة أن القدس ستدوّلُ ولا حاجة للقتال فيها. ولكن عندما وصل المدد إلى القدس الجديدة سارع العدو إلى احتلال حى الشيخ جراح واتصل بالجامعة العبرية ومستشفى هداسا اللتين لم تكونا للتعليم أو العلاج، بل قلعتان كبيرتان على أهبة الاستعداد. حاول العدو إسقاط القدس القديمة انطلاقا من حارة اليهود فيها فاستغاث الأهلون بالجيش الأردنى وبالملك عبدالله الذى فقد هو الآخر الأمل وأصدر إنذاره المعروف إما أن يدخل الجيش القدس أو أذهب بنفسى لقيادته فى فلسطين.

وعلى الأثر صدر الأمر إلى (المقدم) عبدالله التل بدخول أسوار المدينة القديمة مع سرية واحدة مبدئيًا ثم تتبعها سرية أخرى وهكذا. صدر أمر ثان بتشكيل قوة من سريتين تابعتين للواء الرابع مع أسلحة مساندة لتحرير حى الشيخ جراح بإمرة قائد الكتيبة السادسة المقدم "سليد" البريطانى (من اللواء الثالث) الذى أصيب فتولى قيادة المعركة (الملازم) على أبو نوار لأنه من ضباط المشاة ثم وصل مكانه (النقيب) صادق الشرع ومن بعده (المقدم) عبدالحليم الساكت، وتم الاستيلاء على حى الشيخ جراح ومنطقة مركز الشرطة. أرسلت قيادة الفرقة الأولى إلى باب العمود وحدة من سيارات مدرعة بإمرة ضابط بريطانى التحق لتوه بالجيش الأردنى من قوة حدود الأردن المنحلة وأصيب هو الآخر. أنجزت هذه الوحدة مهمة إخراس نيران القوة المعادية التى صعدت على كنيسة النوتردام الشاهقة الارتفاع والمبنية من الصخر الصلد الكبير الحجم فى موقع مشرفٍ على القدس القديمة، وأخذت توجه رمايتها الكثيفة على الكتيبة السادسة من فوق الأسوار كى تعوق إقامة تحصنياتها. ولكن عندما أبطلت فعالية هذه الرماية،

أمكـن إتمـام التحصينـات، واسـتمرت المعركـة الرئيسـية مـن داخـل الأسوار.

تولـى المقـدم عبدالله التل تنسيق العمليات الحربية فيما بين الكتيبة والمنـاضلين والمتطوعـة، ثـم مـع مجموعـات المقـاتلين الفلسـطنيين المرابطين جنوب القدس، وكذلك مع القوات المصرية ومن ضمنها السرية الليبية. وقد كسب بكياسته ودبلوماسيته احترام الجميع وودّ الأهلين من مسلمين وعرب وأرمن وسريان فى مختلف أحياء القدس القديمة. وعندما صدر الأمر الثالث بالهجوم على حى مُشيرم، استعجل ضباط الكتيبة الثالثة تنفيذ المهمة خشية إلغائها مأخوذين بالحماس، ولم يفكروا مليًّا بالخطة التى وضعها قائد اللواء غولدى وأركانه البريطانيون الذين حددوا محاور جبهوية بعد الظهر حين تنعكس أشعة الشمس – أكثرهم من بنى صخر والحويطات ومن السعوديين والسوريين – استطاعت سرية الملازم غازى الحربى (من قبيلة حرب) أن تقتحم "قلعة نوتردام" وتطرد أفراد العدو من الدور الأرضى وتقاتل من تبقى منهم فى الأدوار العليا والجرسيات. وعندما حل الظلام طلب الملازم غازى الحربى(١) التعزيز والتزويد فحرمته ذلك قيادة اللواء (بريطانية) وأجبر على الانسحاب. لقد ضاع على العرب والمسلمين هذا الموقع المهم الذى يشرف على عدة أحياء صهيونية مذعورة كانت على وشك التسليم. ويعود السبب الرئيسى فى ضياع هذه الفرصة إلى الامتناع عن تعويض النقص بسرية أخرى، وعدم

١- نقل على الأثر هو وسريته إلى شمال الجبهة الردنية. واكتشف وهو فى طريقه إلى هناك جنودًا تحفر خنادقًا وأعلمه القرويون أنهم من الأعداء فأبادهم. ولم يمض أسبوع حتى نقل مسافة أبعد فى شرق الأردن فاستقال.

- السماح للكتيبة السادسة المأهبة للنزال بأن تشن هجومًا جانبيًّا من قمم جبل المكبر للإخلال بنظام العدو الدفاعى فى القدس بأسرها. ولقد ذكر الضابط الأردنى على أبو نوار أن موسى دايان تساءل أمامه فى إحدى جلسات لجنة الهدنة فى سنة ١٩٤٩م قائلاً: ما الذى منعكم من شن هجوم ثان فى مشيرم؟ لو فعلتم ذلك لكانت المدينة كلها لكم، حيث كنا ننتظر نهاية المعركة فى اليوم التالى.

كانت كتيبتان من اللواء الثالث منتشرتين لتوهما فوق جبال باب الواد المسيطرة على المضيق المؤدى إلى القدس الجديدة وفى السهول المواجهة لعمواس واللطرون وحتى مستعمرة سوين جنوبًا. واتصلوا بنا نحن رجال الجهاد المقدس، كما اتصلوا برجال النجدات القادمين من المدن والقرى المجاورة. فى أعقاب النتيجة التى آلت إليها معركة مشيرم، بات فى مقدور العدو توجيه هجمات متكررة فى تلك المنطقة وكانت تصده الكتيبة الرابعة (الرابحة) فى كل مرة مكبدة إياه خسائر بالمئات.

وكانت تُرى أرتاله فى الصباح الباكر متقهقرة جنوبًا تجر قتلاها وقد أعياها الإجهاد. ولطالما طالب كلٌ من "العقيد" حابس المجالى و"الرائد" محمود الروسان أن يُسمح للكتيبة الرابعة بمطاردة فلول العدو ولكن قائد اللواء (الجنرال اشتن) رفض كل هذه الطلبات بحجة أن ذلك يؤدى إلى تبديد الجهد والزج باحتياط اللواء! وذات مرة صمم محمد المعايطة قائد وحدة المدفعية العربى أن يخالف الأوامر الجائرة، ووجه الرماية نحو أرتال العدو المنسحب ثم قصف المناطق الحرجية جنوب القدس وشمال قطاع اللواء الثالث، فنقل هو الآخر إلى عمّان

ولم يُسند إليه أى عمل. لقد عزّ على القائد البريطانى(١) للجيش العربى الأردنى (Legion Arab) أن يدع قوات الصهاينة تضعف وتستسلم، بل أخذ يضخم ويهول من شأنها لدى الأهلين أمامنا. ولم يكن لدى الفلسطنيين - وحتى القوات النظامية فى بداية الحرب - أية أجهزة استخبارية فعالة تقيِّم المعلومات المتوفرة وتحلل الإحصاءات المتعلقة بالعدو والتشكيلات والأسلحة، وكذلك كميات وأنواع وموارد المساعدات العسكرية التى حصل ويحصل عليها العدو، وهذا يُعد من مواطن الضعف الكبرى لدى القوات العربية عمومًا.

وعلى الرغم من ذلك اشتد استبسال القوات النظامية وزملائهم المجاهدين/ المناضلين، وصمدوا فى مواقعهم، ثم تقدمت الكتيبة الأولى غربًا وطردت العدو من قرية النبى صمويل وموقع الرادار المرتفعين. وهنا بذل الضباط البريطانيون محاولات خفية لتخفيف الضغط عن قوات العدو المحاصرة فى ضواحى القدس الجديدة. لقد عمد هؤلاء الضباط إلى تشتيت زخم التقدم الذى أحرزته هذه الكتيبة باتجاه "المستعمرات الخمس" والقسطل، وحالوا دون سقوط القدس الجديدة، مما أعاق توجيه الكتيبة شمالاً إلى صرفند ويافا للاتصال بالقوى العربية الأخرى التى كنات بانتظارها.

وعندما تيقن الأعداء من بقاء القدس الجديدة فى أيديهم وأصبح

١- منصبه الرسمى رئيس أركان، وهو الفريق كلوب باشا (ولقبه أبو حنيك لدى البادية لأن حنكه أصيب بطلقة نارية أثناء تجوله فى الصحراء). وكان يزورنا ويشرح على السبورة مبررات واهنة للانسحاب من اللد والرملة. لقد أعرب عن مودته تجاه العرب فى مؤلفاته التى ذكر فى إحداها: **(Arabs are loveable)** ولكنه كان مكلفًا بتنفيذ سياسة بلده أولاً.

بإمكانهم حشد ثلاثة آلاف مقاتل، وشنوا هجومًا واسعًا على الكتيبة الرابعة فى باب الواد فتصدت لهم فى واحدة من أشرس المعارك فى فلسطين حتى ذلك التاريخ. وحقق قادة الفئات الأمامية مبدأ السيطرة على توقيت فتح النيران حتى مسافة مئة متر، ثم أطلقوا كافة أنوع الأسلحة المتوفرة دفعة واحدة وفتكوا بالمعتدين موجة فى أثر موجة عبر الأسلاك، ثم أجهز عليهم جند الإسلام المشاة بحراب البنادق، وأحصى فى الصباح ثمانمائة هوية لقتلى العدو مع أسلحتهم الفردية. لم يسمح القائد البريطانى للواء بمطاردة فلول العدو ولو برماية المدفعية بحجة محدودية القذائف، فأفلت ما يزيد عن ألفى فرد آخرين وأعادوا شن هجمات جديدة. ووُجِّهت إحدى هذه الهجمات إلى دير اللطرون وأمكن صدها، ثم وجهت هجمة أخرى تعززها ست دبابات - ظهرت لأول مرة - ضد مركز شرطة اللطرون وبجانبها أربع ناقلات جنود مدرعة مزودة بقاذفات لهب. فدمر الملازم عبدالمجيد المعايطة ثلاث دبابات منها بقذائف المدافع المضادة واستشهد. ثم تقدم أفراد سرية من كتيبة المشاة الثانية - وعلى رأسهم الجندى الحجازى فارس سلطان - واقتربوا من بقية الدبابات بسرعة فائقة ودمروا آخر دبابة على مسافة عشرة أمتار بقنابل الإنيرجا التى حشوها فى الحاضنات المركبة على فوهات بنادقهم ودمروا الناقلات الأربع أيضًا.

اضطر العدو لدى انهزامه فى منطقة اللطرون أن يشق طريقًا وعرة عبر الجبال جنوبًا غرب القدس وأطلقوا عليها طريق بورما. وفى هذه الأثناء كلفت قيادة الفرقة الملازم "برومج" مع فئتين من السيارات المدرعة وفئة من المشاة بأعمال الدورية حول مستعمرة بيت شيمش وضواحى اللد والرملة الشرقية، وعينت "الملازم" نايف

الحديد مساعدًا له.

وعندما تصدت لهم المستعمرة اشتبكوا معها فى معركة شرسة وتمكنوا من أسر عدد من المجندين والمجندات أرسلوهم جميعًا إلى شرق الأردن. وعلمنا فيما بعد أن قائد اللواء الثالث استدعى ابن جلدته الملازم "برومج" وهدده بالمحاكمة ثم أرجعه إلى بريطانيا(١)، وأصدر أمرًا بانسحاب الفئات الثلاث. وقد أوعز هذا القائد للسرية الخامسة المشاة فى يوم ٩/ ٦/ ١٩٤٨م بالتمركز فى مدينتى اللد والرملة بدون إسناد ثم صدر الأمر بانسحابها هى الأخرى.

وفى القدس القديمة، كلف قائد الكتيبة السادسة المقدم عبدالله التل سرية بقيادة (النقيب) محمود الموسى باسترداد الحى اليهودى، وكان ذلك بمعاونة مفرزة التدمير الفلسطينية، ومساندة مقاتلى قوة الجهاد المقدس بقيادة خالد الحسينى وجنود الإنقاذ بقيادة عبدالله فاضل فى داخل المدينة القديمة، ومرابطة القوات الخفيفة التابعة للجامعة العربية بقيادة المقدم عبدالعزيز، وقد أنجزوا المهمة على خير وجه فى ضحى يوم ٢٨/ ٥/ ١٩٤٨/ وأسروا الحامية الصهيونية بأكملها. لقد استطاع جند الإسلام وهم متحدون أن يطهروا مدينتهم المقدسة وضاحية المصرارة وحى الشيخ جراح.

لقد بذل الجيش وفئات المناضلين والمجاهدين تضحيات كبيرة، ولكن الخسائرَ فى صفوف العدو كانت بالآلاف لأول مرة، على الرغم

١- صعق العدو لدى تكبده هذه الخسائر فى الشمال. مثلما صعق فى معارك "جيب" الفالوجة فى الجنوب.

من الإمكانات الدولية الضخمة المعروفة التى انهالت عليهم والمساندة التقنية الحديثة التى قدمتها لهم مجانًا أعتى آلة حربية عالمية ظلمًا وعدوانًا على السكان المدنيين دون وازع من ضمير.

<u>الجيش العراقى:</u>

وصلت طلائع من الجيش العراقى برًا فى ليلة ٢٨-٢٩/ ٤/ ١٩٤٨م، وعسكرت فى الأغوار الشمالية قبالة جسر المجامع المفضى إلى بيسان على مقربة من منطقة عمليات الجيش السورى فى قطاع "سمخ – طبريا".

وكان قوام هذه القوة ثلاثة آلاف جندى وضابط، عُززت فيما بعد باللواء الأول الذى وصل إلى مدينة "المفرق" ليلة ١٤/ ٥/ ١٩٤٨م بقيادة العقيد الركن نجيب الربيعى، ثم وصل الفوج الثانى من اللواء الخامس بقيادة المقدم عمر على، وعسكر فى نابلس وطولكرم وقلقيلية، ولحق به فوج آخر من اللواء الثانى بقيادة "شملون الآشورى".

أما القوات الشمالية التى كانت مكلفة بالتنسيق مع الجيش السورى - حسب الخطة - لاختراق "خط إيدن" الحصين بين بيسان وطبريا فكان تقدمها نحو جسر المجامع للعبور إلى بيسان وكوكب الهوا فى أعلى نقطة من الجبال الشرقية التى تتحكم جغرافيا بمناطق الأغوار الشمالية، ومرج ابن عامر جنوبًا، وحيفا غربًا على شاطىء البحر. وتولى قيادتها العقيد الركن عارف يساعده كل من المقدم نوح عبدالله والمقدم طارق سعيد فهمى، والرئيس سعيد القريشى. وقد تحولت هذه القوات عن مهمتها الأصلية على مسيرة الجيش السورى، فاتجهت جنوبًا نحو جنين ونابلس وقلقيلية، وخاضت معركتها المشرفة فى

جنين. وكان يراود ضباطها حلم المعركة الحاسمة فى "نتانيا" التى لا تبتعد عن قلقيلية أكثر من (١٥) كيلومترًا، وليس بينهما إلا سهل كراحة الكف حتى شاطىء البحر، ولو تمت هذه العملية لانشطرت فلسطين إلى قسمين، وانحصر اليهود فى جزيرتين حيفا والجليل شمالاً، وتل أبيب جنوبًا.

قدمت قوات جوية عراقية من مطار المفرق إسنادًا فعالاً للوحدات، ولا سيما فى معركة جنين، وكانت مؤلفة من ٢٤ قاذفة قنابل و٣ طائرات من طراز "جلاديتور" وبضع مقاتلات من طراز "فيورى". وتولى رئاسة أركان القوات العراقية المحاربة فى فلسطين كل من اللواء نور الدين محمود، والزعيم طاهر الزبيدى واللواء مصطفى راغب ثم اللواء نور الدين محمود مرة ثانية.

وعندما اشتدت الانتقادات فى مصر ضد العراق لعدم قيامه بنجدة القوة المصرية التى تعرضت لهجوم شامل شنه العدو بتاريخ ١٥/ ١٠/ ١٩٤٨م، أرسلت القوة العراقية بضع وحداتها المتمركزة فى وسط فلسطين إلى الجنوب ولكنها أوقفت فى بيت لحم وطال انتظارها فى معسكر ضربوه بالقرب منا ولم يسمح لها بالتقدم إلى الفالوجة لفك الحصار عن حاميتها بقيادة العقيد سيد طه المار ذكره.

ولن تنسى مدينة جنين فضل الجنود العراقيين فى الدفاع عنها. لقد قدّموا خمسة وسبعين شهيدًا، وكبدوا العدوا ١٢٤١ إصابة، وعاونوا القوات الفلسطينية المحلية على استعادة جنين. إنها المدينة الوحيدة التى احتلها الصهاينة وطردوا منها فى حينه بقوة السلاح. وهى المدينة التى نزلها صلاح الدين وبات فيها ليلة ٨ شوال ٥٨٨هـ، ثم

واصل مسيرته الجهادية شمالاً نحو مدينة بيسان.

الجيشان السوري واللبناني:

كان الجيش السورى هو الآخر فى بداية تأسيسة بعد سنة واحدة من الاستقلال عن فرنسا فى ١٧/ ٤/ ١٩٤٧م. وتقرر دخوله فى الحرب فى عهد وزارة جميل مردم، رغم معارضة رئيس أركانه اللواء عبدالله عطفه الذى كان يرى أن هذا الجيش ليس مؤهلاً لحرب نظامية، وأنه من المفضل إرساله كمتطوعين مدعمين لخوض "حرب عصابات" ضد العدو. وقد تنحى عطفه عن قيادة الأركان ليخلفه الزعيم حسنى الزعيم.

وكان هذا الجيش مؤلفا من ثلاثة ألوية يقودها كل من العقيد عبدالوهاب الحكيم والعقيد محمد جميل البرهانى والعقيد حسنى الزعيم. وكان تعداده يقارب ثمانية آلاف جندى وضابط منهم (٥٠٠) جندى وضابط التحقوا بجيش الإنقاذ بإمرة (المقدم) أديب الشيشكلى، أما عتاده الثقيل فكان (٣٦) مدرعة بريطانية من نوع "مورمون" و(١٠) دبابات فرنسية "رينو" و(٢٤) مدفعًا من عيارات مختلفة. احتل هذا الجيش مستعمرة مشمار هايردن.

شارك الجيش اللبنانى فى هذه الحرب بستة أفواج من المشاة والمدفعية إلى جانب سرية من الخيالة ومفرزة طبية ومفرزة هندسية. وكان يتولى رئاسة الوزارة "رياض الصلح" الذى أسند وزارة الدفاع للأمير "مجيد أرسلان"، على حين تولى قيادة الأركان اللواء فؤاد شهاب. أما العمليات العسكرية فكانت بقيادة المقدم جميل الحسامى.

وقد تميز هذا الجيش بتوفر أسلحته التى كان يجلبها التجار اللبنانيون البارعون، وأعار القوات السورية بعضًا من أسلحته وذخائره. خاض هذا الجيش معركته الشهيرة فى المالكية وقدّس.

الاستنتاج والدروس المستفادة

صدر فى سنة ١٩١٧ وعدٌ من "بلفور" وهو وزير خارجية بريطانى أعطى أرضًا لا يملكها لمن لا يستحقها(١). تولت حكومة "الانتداب" على مدى ثلاثين عامًا إقامة معسكرات تدريب وإنشاء مواقع حربية للصهاينة عبر فلسطين، وكلفت الجيش البريطانى وحلفاءها بالتصدى للشعب الفلسطينى، وجردت عناصر المقاومة الفلسطينية والعربية من وسائل المقاومة والدفاع. ونفذت أحكامًا جائرة بحق كل من تقبض عليه يحمل سلاحًا فرديًا أو حتى رصاصة فارغة. فأعادت إلى الأذهان ذكريات أليمة ارتبطت باسم جمال السفاح والطورانية الشائنة، فى حين استكانت صاغرة للصهاينة الذين كانوا يخطفون ضباطا نظاميين من الجيش البريطانى نفسه نهارًا جهارًا ويعدمونهم فى شوارع تل أبيب بإيعاز من مناحيم بيغن إرهابى منظمة شتيرن إذا حدث توانٍ فى تنفيذ مراحل المؤامرة. وقد اغتالوا الوسيط الدولى الكونت برنادوت السويدى بإيعاز من إسحاق شامير.

---

١ – بل ويقرر الكونغرس الأمريكى فى مايو ١٩٩٧م بجعل القدس الكبرى للصهاينة وكأنها منطقة واشنطن الكبرى، والأجدر به أن ينصف شعوب الأمريكتين الأصليين الذين اقتلعهم من أوطانهم قرصان البحار الفارين من أوربا؛ أما فلسطين فلديها شعب حى له وطن كامل عبر آلا السنين، أغار عليه اليهود الفارين من فرعون وأقاموا فى جزء من فلسطين دولة لمدة ٧٠عاما، ونحن لايعنينا "قرار" أو "وعد" أو "أرض موعودة" إفكًا، مما يؤدى إلى اقتلاع سكان آمنين وتقتيلهم وسرقة مؤنهم السنوية وممتلكاتهم التى لا تقدر بثمن.

لقد ذكرنا كيف نبّه قادة المقاومة إلى اشتداد الخطر المحدق بعروبة فلسطين، وكيف نركز فكر سماحة المفتى الأكبر الحاج أمين الحسينى فى العمل على تسليح جموع الشعب المتأهبة لحماية الوطن وأرض المسلمين وتحرير المواقع التى اغتصبوها بمساعدة المؤسسات العالمية وموظفى المساحة البريطانيين فى عمق الجبال والأغوار. أصدرت اللجنة العسكرية العليا التى اجتمعت فى مصيف عاليه فى سنة ١٩٤٧م خطة شاملة لتنفيذها من قبل جميع القادرين على حمل السلاح الفلسطينى. وممن يحتاج إليه من المتطوعة، وتحث على تحصين المواقع بالقدر المماثل لتحصين العدو على وجه السرعة مهما بلغت التكاليف. وارتأى رؤساء الأركان فى حينه بقاء الجيوش العربية على الحدود دون اجتيازها. أيّد ذلك السياسى المخضرم/ فارس الخورى فى أعقاب مداولاته المطولة فى هيئة الأمم، وردد عبارته الشهيرة: "لا يحرث الأرض إلا عجولها".

وقد أوصى العاهل السعودى الملك سعود، تغمده الله بواسع رحمته، بخطة مماثلة تقضى بأن يتكون للدفاع عن فلسطين - عقب انتهاء الانتداب مباشرة - قوى فدائية شعبية ، تدعمها الحكومات والمنظمات العربية. وتواظب على إمدادها حتى تحقق أغراضها، فإذا نجحت فى الحفاظ على عروبة فلسطين وإفشال مشروع العدو فنور على نور، وإلا واصلت قوى المقاومة عملياتها دون هوادة من أجل تحقيق النصر قبل فوات الأوان.

وعلى الرغم من حكمة هذه القرارات التى أيدت بعضها بعضًا، دخلت وحداتُ الجيوش النظامية الحرب ولكن بعد طول تردد،

فأضاعت على نفسها فرصة الاستعداد لتطبيق أهم المبادىء ولا سيما "التحشد" في الوقت والمكان المناسبين. ونحن نعرف أن الدول العربية، التي تضم ملايين المتشوقين، لم تحشد سوى ١٥.٠٠٠ جندى ميدانى إدارى فى مقابل ٧٠.٠٠٠ مقاتل صهيونى كانوا يشكلون نسبة عالية جدًّا من موارد بشرية محدودة جدًّا. ومع ذلك ازداد عددهم تباعًا بالمسَّرحين من جيوش الحلفاء المنحلة وغيرهم من المرتزقة والمتواطئين. ولقد تدرب السكان والمستوطنون من حولهم وقدّموا إسنادًا مباشرًا، بالإضافة إلى فيلق داود الذى تبناه الجيش البريطانى تدريبًا وممارسة فى الشمال قبل نهاية الحرب العالمية الثانية.

إن معظم هذه المعلومات لم تحلل، وأجهزة الاستخبارات شبه مفقودة. لقد استهان العرب بهذا الأمر الجلل، الذى هو من أولى مبادىء الحرب، ولم يعدوا له عدته له بل حسبوها نزهة. ولقد نشرت الصحف خطابًا ألقاه النقراشى فى مؤتمر عاليه المذكور وقال إنه إذا وافق على الاشتراك فى هذه المظاهرة فإنه غير مستعد للمضى فيها أكثر من ذلك !

وهناك مبدأ ثان من مبادىء الحرب الراسخة يشدد على المثابرة وتحقيق الهدف النهائى. وهو الآخر لم يُترك أمر معالجته لقادة الميدان وفق ما أتيح لهم من إمكانات، بل تدخل فى عملهم المباشر رؤساؤهم الأعلون دون إحاطة بالموقف الحربى. ومن الأمثلة على ذلك الإشارة المفتوحة التى أصرّت على قائد القوة المصرية بأن "يأخذ المجدل اليوم". ومثالٌ آخر، ذلك الأمر العاجل الذى صدر للقوة الأردنية باحتلال القدس الجديدة قبل أن يتوافر لها الحد الأدنى من التعزيز،

وتلقى المساعدة من المقاتلين المحليين الخبراء بالمسالك والمقتربات، ودون أن يُستثمر الفوز العظيم في باب الواد والعمليات الجانبية الأخرى.

لقد مرت بالعدو مرحلة ضعف طويلة لم تُستغل على خير وجه، واطلعنا على ما اعترف به موسى دايان لعلى أبى نوار. لقد صرح ابن القنصل الأمريكي في القدس على ذلك الوضع المتأزم حين قال: إن قرار مجلس الأمن الذى فرض الهدنة الأولى هو وحده الذى خلص اليهود وحال دون سحقهم على أيدى قوات الجيوش العربية(١). ذكر بيغن في كتابه "الثورة" أن اليهود في القدس تظاهروا داعين إلى إنهاء الحرب بأى ثمن، ولكن الهدنة مكنتهم من الحصول على الطعام والماء والسلاح والمتطوعين من الخارج. ولم يكن الوضع آنذاك في تل أبيب أحسن حالاً، بل طالب المتظاهرون بالتسليم فخطب فيهم ابن غوريون قائلاً: لدى وعد قاطع من الإنكليز والأمريكان بأن الهدنة سوف تفرض في غضون ثلاثة أيام، فإن لم يتم ذلك فتعالوا واشنقوني هنا.

لاشك أن وضعنا بين الدول كان ومازال وسوف يظل يتطلب التركيز على إقامة المنشآت الدفاعية في باطن الأرض بمقدار ما هو مشيد فوق سطحها). وهذا المطلب يسهل تحقيقه ضمن مخططات البناء من قبل المُلاك والعُمد والمخاتير ومجالس البلدية ومؤسسات الإسكان. ولا يقتصر استخدام هذه المنشآت على زمن السلم بل تكون قابلة للاستفادة منها على خير وجه في زمن الحرب، إلى جانب الملاجئ الواقية من أسلحة الدمار الشامل والمواقع الدفاعية وقواعد الانطلاق. وأن تُزوَّد في الوقت المناسب بكميات متجددة من العقاقير

والأغذية الجافة والمحفوظة والمياه الصالحة للشرب. وأن يُدرَّب الأهلون تدريبًا مكثفًا فى أيام معدودات كل سنة فى الهواء الطلق والميادين خارج نطاق أعمالهم الرتيبة التى اعتادوا القيام بها فى المنزل والمؤسسة والمصنع والمزرعة. وهذه نزهة اجتماعية بالمجان تروّح عن نفوس المواطنين وتجدد نشاطهم، كما تسعدهم بالتلاقى مع رفقاء الطفولة وزملاء الدراسة. إنهم صغارًا وكبارًا، مقاتلين ومقاتلات، لن يكونوا عبئًا بل عونٌ ورديف مؤهل لدرء الأخطار وحماية الذرارى ومساندة جند الإسلام المنوط بهم أداء أشرف وأعظم مهمة فى الدفاع عن العقيدة والوطن والأمة وشعوبها كيلاتهيم على وجوهها ويزداد نزوح الأهلين بدلاً من عودة المشردين الأوائل. لقد ضحى الشهداء بأرواحهم التى لا تقدر بثمن، والممتلكات التى تقدر بمئات المليارات. وحرىٌ بنا أيضًا نحن شعوب الأمة دون استثناء أن نخصص قبل فوات الأوان مئات المليارات فى دفعة واحدة وحاسمة تُحصَّل من مداخيلنا ومن واردات المؤسسات طوال سنة متصلة أو سنتين، شهرًا بعد شهر. ويكون ذلك وفقًا لمعايير دقيقة بإشراف لجان مشتركة مسئولة تتولى توفير وتصنيع أتم وأحدث وسائل الوقاية والدرع وأسلحة الردع غير الاستهلاكية والتأسيسية التى يخشى الأعداء أن يتلقوا منها فى يوم (ى) وساعة (صفر) الرد الفورى والموازى والاستباقى على أى عدوان محتمل وقوعه فى الحاضر أو المستقبل. ويجب إعداد القوات النظامية والخاصة والشعبية - حماة الديار - لتنفيذ أولويات الخطط التعبوية والسوقية التى تكفل البقاء مواطنين ومهاجرين ريثما تصل النجدات. وتكون مباغتة العدو بالملايين والإطباق عليه من فوقه وتحته وجوانبه، أى من الجبهات

الست بعضها أو كلها، وشلّ حركته وارتهانه، دون تهاون أو تخاذل. إن صبرنا على شظف العيش سنة واحدة فقط يعودنا على الادخار ويضمن حصولنا على كامل الإيرادات فى كل سنة دون ابتزاز أو تلاعب وصونها من التآكل والمضاربات العالمية والمغرضة ومن البذخ والعبث، ونكرم ذكرى شهدائنا الذين هبوا لنجدة فلسطين من الضيعة والكفر والنجع والحى وبذلوا الأنفس موجة فى أثر موجة فداءً لنا ومازالوا يستصرخوننا. لقد جادوا بأنفسهم وأموالهم وهذا أقصى غايات الجود، لكى لاتهيم على وجوهها قوافلُ أخرى من مشردى ومهجرى شعوب أخرى من هذه الأمة. إننا بذلك نحول دون وقوع خسائر فى صفوفنا، وإنما فى صفوف العدو الذى يجزع على نسله ويصيبه الهلع والارتباك، وهذا ما حققناه فى بداية ١٩٤٨م، فنحمى المدنيين ونرد كيد الطامعين ونسترد هيبتنا وحقوقنا وكرامتنا الإسلامية التى لا تقدر بثمن، وتهون فى سبيلها كل ثرواتنا الخاصة والعامة حماية لنا ولأبنائنا.

لقد استغلت "الدولة الصهيونية" وصانعوها فرقتنا فتغلبوا علينا فى حرب سنة ١٩٤٨م وكذلك فى عدوان سنة ١٩٥٦م بقيادة بريطانيا، وسنة ١٩٦٧م بقيادة أمريكا، ولكنهم مُنوا بهزيمة نكراء فى سنة ١٩٧٣م عندما نُسّقت الجهود. وانهارت على رءوسهم رمال وخط بارليف الذى كلفهم لوحده مليارات الدولارات بالإضافة إلى مئات المليارات السنوية التى يستقطعونها من حساب دافعى الضرائب لديهم، ومعظمهم يستنكرون ذلك لأنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

الفهرس

الفهرس

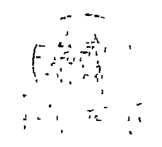
الفهرس

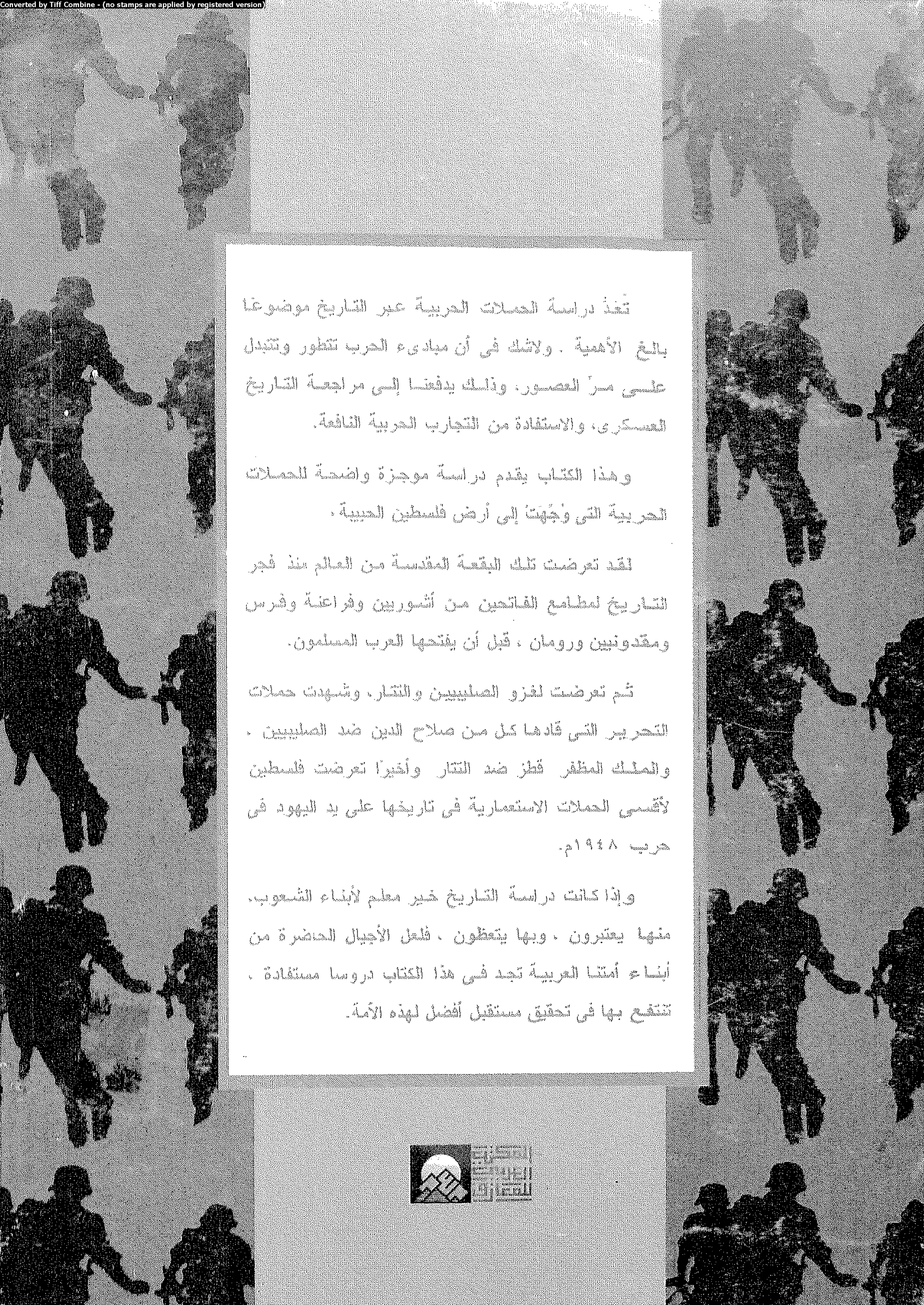
الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

الموضوع	الصفحة





تعدّ دراسة الحملات الحربية عبر التاريخ موضوعًا بالغ الأهمية . ولاشك فى أن مبادىء الحرب تتطور وتتبدل على مرّ العصور، وذلك يدفعنا إلى مراجعة التاريخ العسكرى، والاستفادة من التجارب الحربية النافعة.

وهذا الكتاب يقدم دراسة موجزة واضحة للحملات الحربية التى وُجّهتْ إلى أرض فلسطين الحبيبة.

لقد تعرضت تلك البقعة المقدسة من العالم منذ فجر التاريخ لمطامع الفاتحين من آشوريين وفراعنة وفرس ومقدونيين ورومان ، قبل أن يفتحها العرب المسلمون.

ثم تعرضت لغزو الصليبيين والتتار، وشهدت حملات التحرير التى قادها كل من صلاح الدين ضد الصليبيين ، والملك المظفر قطز ضد التتار وأخيرًا تعرضت فلسطين لأقسى الحملات الاستعمارية فى تاريخها على يد اليهود فى حرب ١٩٤٨م.

وإذا كانت دراسة التاريخ خير معلم لأبناء الشعوب، منها يعتبرون ، وبها يتعظون ، فلعل الأجيال الحاضرة من أبناء أمتنا العربية تجد فى هذا الكتاب دروسا مستفادة ، تنتفع بها فى تحقيق مستقبل أفضل لهذه الأمة.